الفصل الثالث

المشاهد العامة للطير والشاء

القسم الأول : مشهد الطَّير

القسم الثاني : مشهد الشَّاء

obeikandl.com

obeikandl.com

المشاهد العامة للطير والشاء

مشاهد الطير والشاء جزء أصيل في بنية القصيدة الجاهلية وإن ورد بعضها في معرض تشبيه الخيل والإبل. فتلك المشاهد تتخذ لنفسها نهجاً يغاير ما ذُكر سابقاً، وتبرز قيماً فكرية واجتماعية ونفسية ما كانت لتظهر من دونها بوضوح.

ومن هنا فكثير من هذه المشاهد لم تقترن بأي نوع من الحيوان لأنها وردت في حالة من الخلق الإبداعي المجازي وفق أسلوب فني مؤثر. فلما "سرد العرب أخلاق ما عاينوا من السباع وغيرها، وعرفوا ما عابوا من عاداتها وصفوا الشيء الواحد بضروب من الأخلاق المختلفة"[1].

فمشهد الطير يطفح بجملة من الأخيلة الموحية، ويحاكي مشهد الشَّاء رؤية الجاهليين الممزوجة بوجدانهم. وهذا وذاك يعبر عن عالم اجتماعي وإنساني قد لا يفهم إلا بهما، ففي مشهد الطير يستقر نوع من الحياة الاجتماعية الحربية للعرب، على حين تختلط صفات الظباء بالنساء، وبهما تتمثل الروح الإنسانية، وقيم الجمال والمتعة.

وبهذا جُوّدت المشاهد فنقلت ما آمن به الجاهليون ورأوه، بدءاً من مشهد الديك والحمام وهما من النَّوع الذي يألف وانتهاء بطيور غلبت الوحشية عليها وما عرف الجاهليون تدجيناً لها. أما مشهد الشاء فإنه يتوقف عند مشاهد الضأن والمعز التي تُعد من المال، وينتهي إلى الأوعال التي بقيت صورة للدهر، فضُرب بها المثل في الامتناع.

وأياً كانت مشاهد الطير والشاء فإنها تقضي بنُموِّ الترابط بين أجزاء القصيدة، وهي تُظهر صورة الاتساق المعبر عن الحياة في الحل والترحال، وتُرسي جملة من القيم في المدح وبقية فنون الشعر.

ومن هنا كان لزاماً علينا توضيح ذلك كله.

---

١ - ثمار القلوب ٣٨٩.

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الأول : مشهد الطير

يعتمد الحديث هنا جملة من المشاهد التي حظي فيها بعض أنواع الطيور باهتمام الشعراء الجاهليين دون غيرها. وهذا كان المُعَوَّل عليه الانتقال من الطيور التي تألف الإنسان والتي لا تطير إلى الحديث عن بعض الطير الذي يألف ويطير، ثم عن عتاق الطير وسباعها ، فضعافها ولئامها ،والانتهاء إلى ذكر أنواع أخرى من الطير. وكل منها أخذ من القصيدة الجاهلية حيزاً ما بمقدار ما يضفيه شكلها أو طبيعتها من صور مجازية... كالحَجَل والحِدَأ والكَرَوان والمُكَّاء وما سواها. فالتجربة الإبداعية في مشهد الطير تكشف وعي الشاعر بما حوله وهو وعي إنساني يميز ماهية العربي في العصر الجاهلي في إثباته لوجوده الفاعل، وهو وجود يستثير مخزوناً معرفياً عظيماً. وبناء عليه فإن الوعي بالوجود وعي زماني/ مكاني، وعي يتسع لقوة الإدراك البصرية، التي صنعت مبدأ الصورة الشعرية الحاملة للدوال المتعددة.

ويثبت هذا المشهد أن الأبيات المفردة هي التي سيطرت عليه عدا ما وقع في مشاهد قليلة للنَّعام والصقر والقطا والعقاب. ولعل المشاهد التي طالت كانت وقفاً على عرضها في تشبيه الخيل أو الإبل، علماً أننا قد نعثر على بضعة مشاهد طويلة استمدت من رؤية الجاهليين معطياتها ، واغتنت هذه الرؤية بأشكال من التعبيرات الموحية في السلم والحرب. فمشهد الطير يجتزئ من القصيدة حيزاً يسيراً غالباً ما يتكامل مع المبدأ الفكري والنفسي الذي ترسيه منذ بدايتها. وحين تشابه النهج الفني لذكر الطير في القصيدة فإن النزوع الذاتي ظل يرسم نوعاً من الاختلاف بين موقف وآخر، ومن ثم بين الشعراء أنفسهم. وينطبق هذا على مشاهد الطير العامة التي لم يحدد نوعها أو تلك التي تَسَمَّت بأعيانها.

ومن هنا سنحاول إيضاح المشهد العام للطير وهو يسلمنا إلى المشاهد الأخرى.

obeikandl.com

١- المشهد العام للطير

مشهد الطير دون تحديد نوعه إنما يكشف جملة من الدلائل الفكرية والاجتماعية في حياة العرب الحربية دون أن يهمل بقية الجوانب. وعلى الرغم من أن الإطار الفني يوضح أن أكثر ما يُعنى بهذه الطيور تلك التي تتحلق حول جثث القتلى. ولكنه لم يُسَمِّ أي نوع منها بخلاف ما سيأتي حين يشير صراحة إلى تحديد بعض الطير.

ولعل هذا المشهد يتشابه وتلك المشاهد المعروفة للطيور التي ترافق الظعائن، لأنها ترى أن في مرافقتها لرحلة الظعائن فوزاً بالغنائم، إذ تتوهم الثياب الحمر لحماً فتسقط عليها[١].

وأياً كانت هذه الصورة أو تلك فإنها لا تحدد نوع الطير وإن أرادت به ـ غالباً ـ الجوارح واللئام، وهي تثبت دون أدنى ريب أن القبائل العربية اختلفت فيما بينها لأمر من الأمور، وأدى هذا الخلاف إلى الاقتتال[٢]. ولعل هذه الطيور تحاكي مدى الضَّراوة في الحروب فتسعى وراء الجيوش أينما رأتها. ومن هنا كان منظر جماعة الطير يوحي بالخوف[٣]، لأنها يممت ما نواه القوم في القتال وكأنها لم تجد طعاماً في غيره[٤]، وشبيهاً من ذلك يكمن في تشبيه الرايات بالطير[٥].

ويحمل مشهد الطير المتحجلة على جثث القتلى[٦] من الفخر ما لا يكمن في غيره، إذا أهملت الوجوه الأخرى من التشبيه. فجماعة الطير تشبهها الكتائب في الكثرة

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٢٧ ومختارات شعراء العرب ٣٥٣- ٣٥٤ والحيوان ٣٣٥/٦ وسمط الآلي ٥٥٩/١ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢٩- ٣١.

٢ - انظر مثلاً ديوان بشر بن أبي خازم ١١ وعبيد بن الأبرص ١٣٧ و(صادر) ١٤٣، وديوان المتلمس ١١٠- ١١٣.

٣ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٢٨ وعنترة ٢٧٨.

٤ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ١٤٦ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٨٣ و٢١٩.

٥ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٤٤ وعنترة ٢٣٢ و٢٧٩ وأخبار المراقسة ٢٨٣.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٠٠ وسلامة بن جندل ١٧٩ و١٩٥ والنابغة الذبياني ٣٢ و٤٢- ٤٣ والأصمعيات ١٩٤ ق ٦٧.

obeikandi.com

والسرعة، ومن أمثلة ذلك قول ضَمْرة[1]:

ومُـشعِلَةٍ كـالطَّيْر نَهْنَهْـتُ وِرْدَهـا إذا مـا الجَبَـانُ يَـدَّعي وهْـوَ عَانِـدُ

وقِرْنٍ تَركْتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ عليهِ نَجيعٌ مِنْ دَمِ الجوْفِ جاسِدُ[2]

ومهما يكن أمر هذه المشاهد العامة فإنها قليلة بالقياس إلى المشاهد التي حُدِّدت فيها أنواع الطيور، وتبقى هذه دلائل محددة لغايات تتوافر في السابقة، وقد يكون في مشاهد ما يألف من الطير إيضاح لما قيل.

٢- مشاهد ما يألف من الطير

تقوم هذه المشاهد على بعض أنواع الطير كالديك والحمام، والعصافير والنعام. ويظل لكل مشهد منها خصائص فكرية واجتماعية قد لا تتحصل في نظيره من مشاهد الطير.

فمشهد الديك والدجاج يطالعنا في بداية هذه المشاهد ليحكي قضايا رئيسية تتمثل بالقوة والصبر والشجاعة والروغان[3]، ولعل هذا ما جعل بعض القوم يُجْرون صِيصية[4] الديك مجرى السلاح[5]. وعلى الرغم من ذلك فإن الديك يمثل صورة طريفة مُجسَّدة بالرجل الطيب[6]، وغيرها من الصور[7].

---

١ - المفضليات ٣٢٥ ق٩٣ وشرح المفضليات ١١٢٨/٣.

٢ - مُشعِلة: أشعلت الخيل: إذا بثثتها في الغارة. ونهنهت وردها: أي رددتها. ويدعي: ينتسب. وهو عاند: أي متهيئ للهرب و العائد المائل. والقِرْن: الكُفْء في الشجاعة. والنجيع: الدم القاني الأحمر. والجاسد: اللازق.

٣ - انظر الحيوان ٢٣٣/٢- ٢٣٤ ومحاضرات الأُدباء ٦٧٦/٤.

٤ - الصِّيصَة: شوكة صغيرة وقوية في عُرْف الديك، وهي سلاحه الفتاك، يلقيها في عين الديك الآخر إذا اقتتلا.

٥ - انظر الحيوان ٢٣٥/٢ وانظر مثلاً ديوان دريد بن الصمة ٤٨.

٦ - انظر مثلاً: ديوان أمية بن أبي الصلت ٢٧١.

٧ - انظر كتاب الحروف للفراهيدي ٣٧- ٣٨ و٣٩-٤٠ وكتاب الحروف (للرازي) ١٤١-١٤٢.

obeikandl.com

ومشهد الديك عرض للصفات المرتبطة بصوته وندائه في الليل والفجر، فهو ما يزال ينطق في الفجر حتى صار رمزاً له. وقد قيل: إنه يُقَسِّط صوته في الليل كله[1].

وإذا كنا لا نعدم بعض المعطيات الثانوية فإننا سنتوقف عند ارتباط الديك والدجاج وبعض الطيور الأخرى الآمنة بالزمن. فهذه الطيور معروفة بأنها تلغو في جوف الليل والسحر، ولكنها خَصَّت الفجر بندائها أكثر من سواه، حتى صارت رمزاً له[2]. وما زال صوت الديك يحث الناس على المضي إلى تدبير شؤون حياتهم[3] في وقت مبكر من النهار، وإن قيل: إن بعض الطيور تقوم مقامه[4]. أما مقارعو الخمر فإنهم ينكبّون عليها، ويرون صفاء الكؤوس أشبه بصفاء[5] عيون الديكة كما يقول الأعشى[6]:

وكَأسٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ بَاكَرْتُ حَدَّهَا بِفِتْيَانِ صِدْقٍ والنَّواقِيسُ تُضْرَبُ

وربما يتضح من هذا المشهد أن الشَّرْب ينصرفون عن الحسان والقداح[7] إذا مالغا الديك وقد يتبادر بعضهم إلى غاياته[8].

ونداء الديكة وشرب الخمر صورتان مألوفتان في الحاضرة في الحياة والفن، وقد استمرت حتى صدر الإسلام. ولعل ما أثبته الشاعر المخضرم عبدة بن الطيب في شعره الإسلامي يوضح ذلك، إذ عرض لثياب جُلس عليها في بيت من بيوتها فرآها مزينة بصور الدجاج والأسود[9].

---

١ - انظر الحيوان ٢٤١/٢ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٥٠.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء (صادر) ١٤٣ وشعر النابغة الجعدي ١٤- ١٥.

٣ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٨ و٢٦ و٣١٥ والمفضليات ١٣٠ ق٢٤ و١٤٣ ق٢٦.

٤ - انظر الحيوان ٢٩٧/٢.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٧٨ وانظر ثمار القلوب ٤٧٣ وسمط اللآلي ٧٦٠/٢.

٦ - ديوان الأعشى ٢٩٣.

٧ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٨٣ وشعر النابغة الجعدي ٤.

٨ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٦٥ والأعشى ١٠٥ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٥٠ وديوان الهذليين ٢١/٢ وانظر سمط اللآلي ٧٦٠/٢- ٧٦١.

٩ - انظر شعر عبدة بن الطيب ٢٦- ٢٧ و٨٠ والمفضليات ١٤٤ ق٢٦.

obeikandl.com

وهذه المشاهد تنبئ بأن الدجاج من الحيوانات المدجنة فلا غرو أن يتخذ بعض القوم صورها في الثياب. وعلى الرغم من فائدة صوتها إلا أن هذا الصوت كان عند بعض الشعراء[1] باعثاً على القلق والنفور. فالديكة التي طفقت تصرخ في الدور ما كانت لترضي البدوي ولا ناقته وكلاهما اعتاد السكينة والهدوء. ويؤكد لنا المُمزَّق العَبْدي القلق الذي انتاب ناقته في رقدتها وقد هبت الديكة تصيح في جنبات جَوّ، فيقول[2]:

أُنِيْخَتْ بجَوٍّ يَصْرُخُ الدِّيكُ عِندَها وباتَتْ بقاعٍ كادِئِ النَّبْتِ سَمْلَقِ[3]

فهذا المشهد يدل على معرفة البدوي بالدجاج وطباعها وتصرفاتها ولا سيما ما يتعلق بأصواتها في الوقت الذي يثبت أن حرفة تربية هذه الطيور معروفة لأهل الحاضرة. ولعل أوس بن حجر واحد ممن أدخل مشهد الديكة في شعره، حين جعل الديك واحداً مما يحث ناقته على الجري في قوله[4]:

كَأنَّ هِرَّاً جَنِيْباً تَحْتَ غُرْضَتِهَا واصْطَكَّ دِيكٌ برِجْلَيْها وخِنْزِيرُ

فعقلية أوس البدوية منعته من الانسلاخ عن البادية وطبيعة تفكير أهلها، فوظف صورة الديك في هذا الاتجاه الفني. ولكن مفهوم البداوة يتضح أكثر في مشهد الدجاج عند الشاعر المخضرم النَّمِر بن تَوْلب، فالنَّمِر سَخَّر هذا المشهد لظاهرة الكرم المتأصلة عند الأعراب، وتقوم هذه العادة على قِرَى الأضياف من أموالهم وخاصة الإبل. لهذا يأبى بيعها على ضغط زوجته وترغيبه في الدجاج، فقال يخاطبها[5]:

وتأمُرُني رَبيعَةُ كلَّ يَومٍ لأَشرِيَهَا وأَقْتَنِيَ الدَّجاجَا

---

١ - انظر شعر عبدة بن الطيب ٧٩.

٢ - الأصمعيات ١٦٥ ق٥٨.

٣ - كادِئ: من كدأ النَّبْت إذا أصابه البرد فلبده في الأرض، أو العطش فأبطأ نَبْته. والسَّمْلق: القاع المستوي الأملس، والأجرد لا شجر فيه.

٤ - ديوان أوس بن حجر ٤٢.

٥ - شعر النمر بن تولب ٣٣٩.

وما تُغْنِي الدَّجاجُ الضَّيْفَ عنِّي ولَيْسَ بنَافِعِي إلاَّ نَضَاجَا

ذلك ما كان من الدجاج ولاسيما الديك الذي آثر صحبة أهل الحاضرة فانتفعوا به وببعض صفاته وكذلك كان الحمام وإن بقي منه المستوحش المتفرد. والحمام أصغر حجماً من الدجاج لكنه أجمل لوناً، ولونه يحدد نوعه، فمنه اليَمام والقُمْرِيُّ والفَاخِتَةُ والدُّبْسِيُّ وذات الطَّوْق[1]. والحمام أشبه الناس في رقة الطبع والشمائل[2]، وهو معروف بحسن الاهتداء وجودة الاستدلال[3].

ولعل مشهد الحمام يدل على خبرة الجاهليين بطباع هذا النوع من الطير وهيئته، لأنهم ربطوا ذلك بصورة أطلالهم وطبيعة تفكيرهم ولا سيما حين ضربوا الحمام مثلاً لأحزانهم وتفرق شملهم وبكاء أحبتهم. ولهذا وقفوا عند زَجَل الحمام أكثر من أي صفة ثانية[4]، دون أن يهملوا ما يستفيدون منه في معرض أحد التشبيهات.

وبذلك ندرك أن هجران الديار يعني فناء حياة الإنسان فيها، بينما خَلَق الحيوان فيها حياة جديدة، فكأنما تتمثل له فيه صورة الحياة بالموت والعكس صحيح، وهي سُنَّة الله ومالها من تبديل. فالجاهليون رفضوا أن يَدَعوا الموت في أطلالهم، وطفقوا يشخّصون آثار الأثافي والدِّمَن بالطبيعة الحية، فإذا هي صورة من الحمام[5]، كقول زهير بن أبي سلمى[6]:

غَشِيتُ دِياراً، بالنَّقِيْعِ فثَهْمَدِ دَوارِسَ قد أَقوَيْنَ، من أُمِّ مَعْبَدِ[7]

---

١ - انظر الحيوان ٣/٢٠٠ وحياة الحيوان الكبرى ١/٢٥٦- ٢٥٧.

٢ - انظر الحيوان ٣/٢١١.

٣ - انظر الحيوان ٣/٢١٤.

٤ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٩١ ق٧٦ ومجمع الأمثال ١/٢٢١.

٥ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٠٨ وديوان بشر بن أبي خازم ١٣٠ والأصمعيات ١٨٠ ق٦٣، وديوان الهذليين ١/٢٢٧ وانظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٩٥٢ و ما بعدها ، فقد بالغ صاحبه نوعاً ما في الحديث عن ذلك.

٦ - شعر زهير بن أبي سلمى ١٧٧.

٧ - النقيع وثهمد: موضعان. وأَقْوين: أقْفَرن. والدوارس: جمع دَارسة وهي البالية.

obeikandl.com

أَرَبَّــتْ بهــا الأرواحُ كــلَّ عَــشِيَّةٍ فلــمْ يَبْــقَ إلاَّ آلُ خَــيْمٍ مُنَــضَّدِ[1]

وغَــيرُ ثَــلاثٍ كالحَمــامِ خَوالــدٍ وهــابٍ، مُحِيــلٍ هامــدٍ مُتلبِّــدِ[2]

فمشهد الحمام يقف مقابل الغزلان والظباء والبوم...وغير ذلك من الحيوانات التي أسكنها الشعراء في أطلالهم....أي إن هذا المشهد مرتبط بوعي الشاعر الوجودي الذي يرد على فناء الحياة في المكان....ولعل ما يميز وجود الحمام في الأطلال أنه رمز للسلامة والفأل الحسن؛ أي إنه تعبير رمزي مكثف عن الأمل بالمستقبل، ومحاولة محو آثار القلق الوجودي من النفس البشرية، فضلاً عما يشي به جوهر الترميز بالحمام من معاني الدفء والألفة والمحبة...

فمشهد الحمام في الأطلال يجسد الرؤية الجمعية التي تواجه حالة الزمن القهرية. ولهذا فإن مشهد الحمام يمثل صرخة قوية لمواجهة الخراب والفراغ والموت والفناء....

ومن ثم بكى الشعراء هذه الأطلال الخالية من أحبتهم سافحين الدمع إثرهم مثل بُكاء حمامة تدعو هديلاً، كقول النابغة الذبياني[3]:

أُســائلُها وقــد سَــفَحَتْ دُمُــوعي كــأَنَّ مَفِيْــضَهُنَّ غُــرُوبُ شَــنِّ[4]

بُكــاءَ حَمامَــةٍ تَــدْعُو هَــدِيلاً مُفَجَّعَــةً علــى فَــنَنٍ تُغَنِّــي[5]

فالشاعر يعيش حالة اغترابية زمانية ومكانية، حالة اغتراب نفسية حين وجد التلاشي اللامتناهي يعبث بتلك الأطلال التي عمرت ذات يوم بالذكريات الجميلة...

---

١ - أَرَبَّت بها: أقامت بها ولزمت. والأرْواح: جمع رِيْح. وآلُ: جمع آلة، وهو عُوْدٌ له شعبتان يُعرَّض عليه عود آخر. والخَيْم: جمع خَيْمة.

٢ - الخوالد: الباقية المقيمة. والهابي: رماد عليه غُبرة. والمحيل: الذي أتى عليه حَوْل. والهامد: المتغير، وأصله من: هَمَدت النار إذا طَفِئَت. والمتلبد: اللاصق بعضه ببعض لكثرة تردد المطر عليه.

٣ - ديوان النابغة الذبياني ١٢٥ وت.د (شكري فيصل) ١٩٦- ١٩٧.

٤ - المفيض: المصَبُّ والسيلان. والغُرُوب: جمع غُرْب، وهو مَجْرَى الدمع فاستعارها للشن. والشَنُّ: القِرْبة البالية.

٥ - الهديل: فرخ الحمام، ويُدعى سَاق حُرّ، انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١١٤- ١١٥.

ما أدى به إلى ترجيع أحزانه عويلاً متصاعداً، ودمعاً غزيراً لا مثيل له إلا حزن حمامة فقدت هديلها فلم يعد إليها...

وترسخ هذا النهج في مشهد الحمام فربط حسان بن ثابت بين المطر والدموع والأثافيّ والحمام[1]. ولكن بعض الشعراء أصر على إظهار المشهد في صميم الحاضرة، وكأن الحمام لا تزايلها فبَنَت أعشاشها هناك وأَلِفت البشر وألفوها[2]، كقول الأعشى[3]:

أَلَمْ تَرَ أنَّ العِرْضَ أَصْبَحَ بَطْنُهَا نَخِيلاً وَزَرْعاً نَابِتاً وفَصَافِصَا[4]

وَذَا شُرُفَاتٍ يُقَصِرُ الطَّيْرَ دُوْنَهُ تَرى لِلحَمَامِ الوُرْقِ قَرَامِصَا[5]

ويذكرنا مشهد الحمام بأن مكة اشتهرت بكثرة الحمام حتى ضُرب المثل بها في الأمن، فقيل: آمن من حمام مكة[6].

والحمامة أينما عاشت ووُجدت فهي مغنية مشهود لها بالنّياحة والبكاء[7] لم تُعطَ أجراً على صنيعها. ومن هنا يتجلى لنا أن نَوْح الحمام كان رمزاً للحزن أو الأمن عند الجاهليين، مثلما صار الحمام رمزاً للسلام عند المعاصرين[8]. وذُكر ذلك في النسيب والغزل على فراق الأحبة[9]، وفي الرثاء حين يطوي التراب ذويهم. وكيفما

---

١ - انظر شرح ديوان حسان بن ثابت ١٥٠.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٦٧ وديوان عنترة ٢٤١.

٣ - ديوان الأعشى ١٨٧.

٤ - العِرْض: واد باليمامة وهو موطن الأعشى. والفصافص: نبات تعلفه الدواب.

٥ - الورقاء: الحمامة التي تضرب الخُضْرة. والقَرَاميص: جمع قُرمُوص، وهو العش والوكر، وحُذفت ياء قراميص ضرورة.

٦ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٢٥ ومجمع الأمثال ٨٧/١ وجمهرة الأمثال ١٩٩/١ وانظر الحيوان ١٩٢/٣- ١٩٣.

٧ - انظر الحيوان ١٩٨/٣.

٨ - انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٩١٣.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٤٣ و٩٢ (وصادر) ٥٩ و١٠٠ وطرفة بن العبد ٩٣ والنابغة الذبياني ٢٠٣ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٣٢ (وجزيني) ١٠٧ وديوان الأعشى ٢٣١.

obeikandl.com

وكيفما قُلِّب المشهد فالحمامة ما تني تنوح على غُصن من فروع الأَيك، فهذا بشر بن أبي خازم يقول[1]:

ذَكَـرْتُ بهـا الحَـيَّ إِذْ هُـمْ بِهَـا ... فأَسْـبَلتِ العَـيْنُ مِنِّـي سِـجَامَا[2]

أُبَكِّـــي بُكَـــاءَ أَراكِيَّـــةٍ ... عَلـى فَـرْعِ سَـاقٍ تُنـادِي حَمامَـا[3]

ولعل هذا يصور ما في نفوس المحبين، لأن صوت الحمام يبعث الشجا، فيزيد البكاء عندهم. فحين يبكي الحمام في أطلال عنترة فإنما يمثل صورة له وهو يذرف الدمع تهتاناً على عبلة حتى ينعقد لسانه، ويبتلّ محمل سيفه، كقوله[4]:

أَفَمِـنْ بُكَـاءِ حَمامَـةٍ فِي أَيْكَـةٍ ... ذَرَفَتْ دموعُكِ فوقَ ظَهْرِ المِحْمَلِ

وليس هذا المذهب الفني في مشهد نوح الحمام والمحبين وحيداً، إذ بقي غناء الحمام الذي يشبه غناء رجل مُنْتَشٍ بالخمرة باعثاً لصور ذكريات الماضي الجميل[5]. والحمامة قاسمت الجاهليين أحزانهم وخفَّفت لوعة الفراق كما وطنت في نفوسهم التجمل بالصبر لمن فَقَد عزيزاً. فلغة الحزن لغة مشتركة بين الحمام والناس، وهي لغة تعبر عن التقاء العناصر الإنسانية والروحية فيما بينها، حتى صارت الحمام رمزاً للحزن قبل غيره. فالسُّنَّة متماثلة في خَلْق الله، وليس الإنسان متفرداً في المصائب. وقد يكون الهذليون أكثر إبداعاً من بقية الجاهليين في استعمال مشهد الحمام في العِبْرة والتعزي، إذ أبرزوا بشكل مؤثر عظمة أحزانهم، وقدرتهم على رسم صور التفاعل بينهم وبين الحمام[6].

وانظر الحيوان ٣/١٩٨- ١٩٩ وديوان العباس بن مرداس ١٣٦ والمرشد إلى فهم أشعار العرب ٩١٠ و ما بعدها و٩٣١ و ما بعدها .

١ - ديوان بشر بن أبي خازم ١٨٧.

٢ - سِجَاماً: من سَجَمتْ العين الدمع إذا أرسلت به.

٣ - الأَراكِيَّة: يعني حمامة على شجر الأراك. والفَرْع: أعلى الشجرة.

٤ - ديوان عنترة بن شداد ٢٤٧.

٥ - انظر ديوان طفيل الغنوي ٨٦.

٦ - انظر مثلاً: شرح أشعار الهذليين ٢٩٢/١ والحماسة البصرية ١٥٣/٢ والأغاني ٢١٨/١٨ وانظر كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١١٤.

obeikandi.com

ولكنهم لم يكونوا متفردين في هذا الاتجاه[1]، فالخنساء مثلاً لا تقل إبداعاً عن أي واحدٍ منهم في رسم ملامح الأحزان التي فطرت كبدها[2]، كقولها[3]:

تَذَكَّرْتُ صَخْراً إِذْ تَغَنَّتْ حمامَةٌ هَتُوفٌ عَلى غُصْنٍ مِنَ الأَيْكِ تَسْجَعُ

فظَلْتُ لهَا أَبْكِي بِدَمْعٍ حَزِينَةٍ وقَلْبِي ممَّا ذَكَّرتْنِي مُوَجَّعُ

ومشاهد الحمام أصّلت الحديث عن نوح الثكالى، دون أن تَعدمَ صوراً أخرى، لأنها كانت موضع عناية الشعراء في صورهم المختلفة الحسية والنفسية[4]. ولعل من أشهر تلك الصور ما وقع للأعشى[5] والنابغة الذبياني، إذ صوَّرا شفتي المرأة بأنهما تشبهان ريشتين في جناح الحمامة القُمْرِيَّة، فإذا ابتسمت كشفت عن أسنان كأنها بَرَد لبياضها وصفائها، فالنابغة شبه حركة خفوق الجناحين بافتراق الشفاهِ في صورة الابتسام فملأ المشهد بهجة وخفة، فقال[6]:

تَجْلُو بقَادِمَتَيْ حَمامَةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُهُ بالإثْمِدِ

وتناول مشهد الحمام صفة السرعة لتكون مدعاة لتشبيه سرعة الخيل، فالخيل تباري أعنتها كما لو أنها حمام يتسابق إلى الماء[7]. وربما تزداد القرائن حتى تختلط الصور الحسية بالصور المعنوية، فالرعب يدب في نفوس الحمام حين ترى البازي، وهي منه أخوف من الصقر[8]. ولهذا تشبه الخيل البازي بينما تشبه البقر الوحشي[9]

---

١ - انظر مثلاً: شعر عبدة بن الطبيب ٣٧ وشعر عمرو بن شأس ٢٩ والمفضليات ٢٧٢ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢١٢/١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء (صادر) ٣٧ و٤٢ و٥٩ و٩٨ و١٠٥ و١٠٦ و١٢٨.

٣ - ديوان الخنساء (صادر) ٩٦.

٤ - انظر مثلاً: قصائد جاهلية نادرة ٨١.

٥ - انظر ديوان الأعشى ١٦٥.

٦ - ديوان النابغة الذبياني ٩٤ وانظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٩٢٢ و ما بعدها، فقد رأى فيه صاحبه معنى مستكناً يشير إلى زرقاء اليمامة، وهو غير جائز، انظر سمط اللآلي ١٦٧/١- ١٧٧.

٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢١٢ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٠٦ و٢٥٢.

٨ - انظر الحيوان ٢١٩/٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢٥٨/١.

٩ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٥٧.

obeikandl.com

أو الحمر الوحشية[1] الحمام، وكأن الخيل في الأصل شبه للمدوح.

ولم يكن عش الحمامة ولا طوقها بعيداً عن صور الجاهليين الفكرية في الهجاء خاصة وغيره عامة. فبنو أَسَد حاروا في أمرهم حين هددهم حُجُرٌ الكِندي حتى كادوا يضيعون كما يضيع بيض الحمام من العش، لأنه لم يَبْنَ جيداً، ولهذا ضُرب به المثل فقيل: أخرق من حمامة[2]. ويحدثنا عن ذلك عبيد بن الأبرص بقوله[3]:

بَرِمَتْ بَنُو أَسَدٍ كما بَرِمَتْ بَبَيْضَتِهَا الحَمَامَهْ

جَعَلَتْ لَهَا عُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وآخَرَ مِنْ ثُمَامَهْ[4]

وحين تُلصق بالقوم صفة لا تَنْحَلُّ ولا تنقطع يُضرب بها المثل بطوق الحمام الذي صار مدعاة للسُّبَّة والشتيمة، فعُتْبة بن جعفر بن كلاب – وقُتل ابن ضياء وهو في جواره – لزمه عار القعود عن طلب الثأر، فهجاه بشر في ذلك فقال[5]:

حَبَاكَ بها مَوْلاكَ عَنْ ظَهْرِ بِغْضَةٍ وقُلِّدَهَا طَوْقَ الحَمَامَةِ جَعْفَرُ[6]

وقبل مفارقة مشهد الحمام إلى مشهد العصفور نذكِّر بأنَّ الحمام دخل في جملة من مفاهيم العرب ولا سيما أساطيرهم[7]، وأحاجيهم[8].

---

١ – انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٧٣.

٢ – مجمع الأمثال ٢٥٥/١ وانظر الحيوان ١٨٩/٢.

٣ – ديوان عبيد بن الأبرص ١٢٦ و(صادر) ١٣٨.

٤ – النَّشَم: شجر تُتخذ منه القِسيّ. والثُّمامة: نَبْت ضعيف لا يطول.

٥ – ديوان بشر بن أبي خازم ٨٩ وانظر مثلاً: آخر: ديوان عامر بن الطفيل ١٣٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢٦٣/١.

٦ – حباك بها: منحك إياها دائماً.

٧ – انظر الحيوان ١٩٦/٤– ١٩٧ وديوان أمية بن أبي الصلت ٣٣٨– ٣٣٨، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١١٤ حاشية ٤ و ٨ .

٨ – انظر حول ذلك في (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٢٦٢ والمرشد إلى فهم أشعار العرب ٩١٤ و ما بعدها، و٩٢٥ وما بعدها.

obeikandl.com

أما العصفور وإن دل على الكَثْرة لفظاً[1]، فإنه بقي مضرب المثل في السخف والغباء[2] والضَّعف[3] لضآلة جسمه، كقول دريد بن الصمة[4]:

كَأنَّ وِلْدانَهُمْ لَمَّا اخْتَلَطْنَ بهِمْ تحْتَ العَجَاجَةِ بالأَيْدي العَصَافِيْرُ

وصار صفيره نذيراً للجبن كما يقول ذو الإصبع، فهو يصور رجلاً حديد الناب إذا أقبل على الطعام، ويطير فؤاده رعباً إذا سمع في الخلاء صوت عصفور[5]:

إذا هَتَفَ العُصْفُورُ طَارَ فُؤَادُهُ ولَيْثٌ حديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِدِ

فالعصافير من الطيور الجبانة التي يلاحقها الصقر[6]، لهذا تخرج مبكرة تطلب رزقها، ولكن الشعراء جعلوا ذلك مضرب المثل في إطار مجازي مثير حين افتخروا بخروجهم قبلها وهم على خيلهم، وغالباً ما تخرج مجتمعة، وقال عبد المسيح بن عَسَلة وقد أخفى فرسه لئلا تعلم به الوحش[7]:

مُسْتَأْسِدِ النَّبْتِ مَعْلُولٍ أُطَاوِلُهُ كأنَّ زاهِرَهُ تَلْوينُ أَفْوَافِ

باكرتُهُ قبلَ أَنْ تَلغى عَصَافِرُهُ مُسْتَخيفاً صاحبي وغيرُهُ الخَافِ[8]

لهذا أتاحت هذه الصورة لبعض الشعراء الامتداح بكثرة جنود الكتائب، فبدر بن حُذَار افتخر بعدد جيش ابن جفنة قائلاً[9]:

حتى لَقِيْتَ ابْنَ كَهفِ اللُّؤْمِ في لَجَبٍ يَنْفِي العَصافِيرَ والغِربانَ جَرَّارِ

---

١ - انظر الحيوان ٥/٢٤٠ وله معان أخرى قد يتصل بعضها بالإبل، اللسان (عصفر).

٢ - انظر الحيوان ٥/٢٢٩ وانظر مثلاً: شرح ديوان حسان بن ثابت ٢٧٠ وديوان دريد ٧٤. ونحن ما زلنا نقول: طارت عصافير رأسه كناية عن الخوف والسخف.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٩٧ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٥٦.

٤ - ديوان دريد بن الصمة ٧٧.

٥ - سمط اللآلي ٢/٧٧٩ وهو في العقد الفريد ١/١٤٣ برواية مختلفة نوعاً ما.

٦ - انظر مثلاً: قصائد جاهلية نادرة ١٤٥ وديوان السُّليك بن السُّلَكة ٨٥.

٧ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٨٠ ق٧٣ والبيت الأول لم يروه المُفَضَّل وهو في سمط اللآلي ١/٥٧٠.

٨ - وغيره الخافي: أي مثله لا يخفى لإشرافه وبُدْنه، على حين يخفى غيره، انظر سمط اللآلي ١/٥٧٠.

٩ - ديوان النابغة الذبياني ٨٠.

obeikan.com

وهذه المشاهد تؤكد أن العصفور ورد في معرض المجاز، ولم تتعرض للصفة الحسية على الرغم من أنه قد يسكن الحاضرة ويألف الناس ويألفونه، وهي قليلة قياساً إلى مشاهد الحمام مثلاً، علماً أن العصافير من الطير التي تألف وتؤلف بيد أنها لا تدجَّن ـ غالباً ـ كالحمام والنعام.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن مشهد النّعام في القصيدة الجاهلية، وهو من أكثر المشاهد غِنىً بالصور المجازية. "ومن النَّعام هِقْل وهِقْلة[1]، وهَيْق وهَيْقة[2]، وصَعْل وصَعْلة[3]، وسَفَنَّج وسَفَنَّجة، ونَعام ونَعامة، والواحد من فراخها الرَّأْل والجمع الرِّئال ورئلان والأنثى رألة[4]، وحَفَّانة والجمع حَفَّان، وقد يكون الحَفّان أيضاً للواحد. ويقال لها قِلاص والواحدة قَلوص، ويقال ظليم ولا يقال ظليمة، ويقال نِقْنِق[5] ولا يقال نِقْنِقة"[6] والنعام من الطير ولا يطير، وقد استطاع الإنسان تدجينه.

ومشهد النّعام في الشعر الجاهلي يتشابه في مذهبه الفني والفكري، فقد ظهر في الأطلال انتصاراً لإرادة الحياة، وتماثلت صورته بالإماء في مضارب الحي. ولكن التقليد المتميز للنَّعام أن جُعل صورة للحنين والشوق، ولذا تزداد سرعته التي تسقط على صفة السرعة عند الخيل والإبل[7]. ولا نَعدم وجود صور أخرى لجملة من الظواهر الاجتماعية والصور الطبيعية في السلم والحرب.

فالنّعامة طالما ضَربت في البادية باحثة عن قرينها ولكنها لم تُجْزَ إلا بقطع أذنيها

---

١ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٦٣ وطرفة بن العبد ١٦٤ والأعشى ٢٦٥.

٢ - مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٧٩.

٣ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٦٣ والأعشى ٢٦٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٣٧ وطرفة بن العبد ١٤٨ وعامر بن الطفيل ٧٨ والأعشى ١٠٧ و٣٤٣ وشرح ديوان لبيد ٧٣ و٢٩٦.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٧٠ و١٧٩ والأعشى ٢٦٥.

٦ - الحيوان ٢٨٧/٢ وانظر اللسان والتاج والقاموس المحيط (سفنج وقلص ونقق وهيق ورأل وصعل وهقل وظلم ونعم) واللسان (حفن).

٧ - راجع ما تقدم ١٠٣ وما بعدها وانظر ديوان الأعشى ٢٦٥.

obeikandi.com

حتى صارت مُصلَّمة الأذنين ما عمرت[1]. ولهذا اختلف الشعراء في الحديث عنها، فمنهم من جعلها تسمع[2]، ومنهم من أنكر عليها ذلك[3]، وقد وفّق علقمة الفحل بين الفريقين إذ جمع بين هذا وذاك في ميميته المشهورة[4].

وإذا اختلف الشعراء في قصة السمع فقد اتفقوا على إسكانها في الأطلال[5]، وكأنهم أبوا أن تندرس من الآثار وتعفو ما يجعلها توحي بالموت، فأثابوا النّعام على كثرة تطوافه، كقول النابغة الذبياني[6]:

أهاجَكَ مِن أَسْماءَ رَسْمُ المَنازِلِ برَوْضَةَ نُعْمِيٍّ فذاتِ الأَجاوِلِ

عَهِدْتُ بها حَيًّا كِراماً فبُدِّلَتْ خنَاطِيلَ آجالِ النَّعامِ الجَوافِلِ[7]

وليس هذا فحسب بل إن النّعام أخذ يخطط لنفسه حياة جديدة في هذه الآثار حتى إذا ما مَرَّ بها الشاعر ذكرته بأحبته فبدأ دمعه يرشح من عينه، كقول المرقش الأكبر[8]:

أَمِنْ آلِ أَسماءَ الطّلُولُ الدَّوارِسُ يُخَطِّطُ فيها الطَّيْرُ قَفْرٌ بَسَابِسُ[9]

ذَكَرْتُ بها أَسماءَ لَوْ أَنْ وَلْيَهَا قَرِيبٌ ولكنْ حَبَسَتْني الحَوابِسُ[10]

وترسم المشاهد صورة المرأة الأَمَةِ والأرملةِ فتظهر كالنَّعامة، حاملة الحطب

---

١ - انظر المعاني الكبير ٣٣٧/١ واللسان (نعم) ومعجم مقاييس اللغة ٧٦/١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٣ وشرح ديوان لبيد ١٢ و١٨ وشرح القصائد العشر ٣٧٤- ٣٧٥ والمفضليات ٦١ ق١١ والحيوان ٣٩٥/٤- ٤٠١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢٣ وعلقمة الفحل ٥٩ وعنترة بن شداد ١٩٩- ٢٠٠ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٢٧- ١٢٨ وشرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٢١٧/١ والحيوان ٣٩٩/٤.

٤ - انظر ديوان علقمة الفحل ٥٩ و ٦٣ وراجع ما تقدم ١٠٩ وما بعدها.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٣٢ وعبيد بن الأبرص ٩٢ وطرفة بن العبد ١٦٤.

٦ - ديوان النابغة الذبياني ١٤١- ١٤٢.

٧ - الخناطيل: الفرق والجماعات. والآجال: الجماعات. والجوافل: النوافر المسرعة فرقاً.

٨ - المفضليات ٢٢٤.

٩ - الطلول: ما شخص من آثار الدار، والرسوم: ما انخفض منها. ويخطط الطير: يرعى. واليابس: القفر الخالية.

١٠ - وليها: حيث تولت وذهبت.

openkandil.com

فوق رأسها، ومن أمثلة ذلك قول الأخْنَس بن شهاب[1]:

تَظَلُّ بها رُبْدُ النَّعامِ كأنَّها إماءٌ تُزَجَّى بالعَشِيِّ حَوَاطِبُ[2]

فهذه الصورة تمثل اتجاهاً فنياً في الوصف مستمداً من الاتجاه الطبيعي والاجتماعي وكأن الشاعر أحس بوطأة العذاب الذي تلقاه إماء الحي[3].

ويقوي هذا المفهوم أن النّعام تشبهها الأرملة التي قامت على أطفالها، كقول الأعشى[4]:

وَأَرْمَلَةٍ تَسْعَى بِشُعْثٍ كأنَّها وَإيّاهُمُ رَبْدَاءُ حَثَّتْ رِئَالَهَا

فمشهد النّعام يذكر بالأصل النفسي الباعث له، وبوساطته يرتبط المرء من جديد بالحياة في إطار الهدف الذي رسمه الشعراء مدحاً ورثاءً وهجاءً.. ولم يكن المذهب الفني في هذا الاتجاه واحداً ولا سيما فيما قيل في صفة السرعة. فالشعراء يجعلون النّعام ذا حنين وشوق، وهي تقفل مسرعة إلى أُدْحِيِّها مهما تفصلها المسافات عنه، وتهتدي إليه لا تنساه أبداً. ومن هنا تكتسب صفة السرعة قيمة مطلقة حين يوصف بها الفرس والناقة[5]، ولعل هذا يجعلنا ألا نتّهم النّعام بسوء التدبير، كما أن صورتها لا تغيب عن صورة المرأة خاصة[6]. ولكن سوء الطالع بقي ملازماً إياها، فصفة السرعة إذا كانت من خوف فقد تجعل النَّعام يشرد في غير اتجاه، ولهذا قيل في المَثَل: أَشْرَدَ من نَعامة[7]. وصارت هذه الصورة تحمل مفهوماً مجازياً في صفات البشر[8]، فعَامر بن الطفيل يصور هلع أعدائه كناية عن جُبْنهم ساخراً منهم بأنهم

---

١ - المفضليات ٢٠٤.

٢ - الرُّبْد: جمع أَرْبد ورَبْداء، والرُّبْدَة سواد في بياض. وتُزَجَّى: تُساق.

٣ - انظر المفضليات ٢٤٤ ق٥٦ والحيوان في الشعر الجاهلي ٨٧.

٤ - ديوان الأعشى ٣٤٣ والبيت مذكور في الديوان ٣٧٩.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٧٨ والأعشى ٢٣١ وراجع ما تقدم ١٠٣ ومابعدها و١٩٩-٢٠٠.

٦ - راجع ما تقدم ١٠٣ وما بعدها واللسان (نعم).

٧ - مجمع الأمثال ٣٨٨/١ وانظر جمهرة الأمثال ٥٦٣/١.

٨ - انظر مثلاً: المفضليات ١٦٦ ق٣٢ و٣٨٨ ق١١٨ وديوان الهذليين ٣١/٢ وديوان عنترة ٣٤٠ وقصائد جاهلية نادرة ١٠٤.

كالنّعام النافر، قائلاً[1]:

قَتَلْنـا كَبْـشَهُمْ فَنَجَـوا شِـلالاً كمَـا نَفَّـرْتَ بـالطَّرْدِ النَّعامَـا

وصورة النعام الشارد ضربت مثلاً للجِمال التي تسرع خارجة من مضارب القوم كقول عبيد بن الأبرص[2]:

والعِـيسُ مُـدبِرَةٌ تَهْـوِي بِأرْكُبِهـا، كـأنَّهُنَّ نَعَـامٌ نُفَّـرٌ مُعُـطُ[3]

ولكن التشبيه قد يُقلب، فتشبه الظِّلمان النوق الجُرْب لأنها سود من القطران وهي في حالة مخاض، وكأنه أراد صفة النشاط وهي بعيدة عن الإنس لا ترى أحداً يروعها، كقول طرفة بن العبد[4]:

وَبِـلادٍ زَعِـلٍ ظِلْمانُهَـا كَالْمِخَاضِ الجُرْبِ فِي اليَوْمِ الخَدِرْ

ويقنص مشهد النَّعام صوراً من الطبيعة الجامدة، كزق الخَمر[5]، والسحاب الذي[6] ركب بعضه بعضاً لا يبرح السماء لا يشبهه إلا قطعان النّعام، كما يتناول المشهد بيض النعام المركوم في الأدحي بعدد من الصور الطريفة.

ومن هنا اكتسب عرض بيض النّعام في المشهد جوانب فكرية متعددة فضُرب مثلاً للصحة والرعاية عند النساء[7] والإبل[8]، كما اتُّخذ مداراً للتشبيه في كثير من صور الحرب. فبيضة النّعام المحروسة التي لا يفارقها النّعام حتى لا تفسد لا تشبهها إلا الفتاة الشابة، كقول عمرو بن شأس[9]:

---

١ - ديوان عامر بن الطفيل ١١٠.

٢ - ديوان عبيد بن الأبرص ٨٤ و(صادر) ٩٢.

٣ - تهوي: تسرع. والمُعُط: التي نتف ريشها.

٤ - ديوان طرفة بن العبد ٦٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٠٧.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٢٥ وسلامة بن جندل ١٣٦.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٣ و١٦ والأعشى ١٧٥ والمفضليات ١١٥ق٢١ و٢١٩ق٤٤ وشعر زهير ٢٠٢.

٨ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٣٩ وهو أصمعية ٦٥ ص١٨٨.

٩ - شعر عمرو بن شأس ٩٨.

obeikandi.com

وما بَيْضَةٌ باتَ الظَّلِيمُ يحفُّهَا إلى جُؤْجُؤٍ جَافٍ بمَيْثَاءَ مِحْلَالِ[1]

بأحسَنَ مِنْهَا يَوْمَ بَطْنِ قُراقِرٍ تَخُوضُ بِهِ بَطْنَ القَطَاةِ وقَدْ سَالْ[2]

فالقرينة الجامعة بين المرأة والبيض تتعلق بالصحة والعافية، وقد استطاع أن يعبر عن ذلك بصيغة التفضيل، وفق الاستدارة الشعرية، ليجعل المرأة أكثر حيوية ونقاءً من تلك البيضة المحروسة[3]. ومن هنا ينشأ التفاعل بين الشاعر وبين الواقع في الوقت الذي ينشأ بينه وبين عناصر التخييل ليزيد الصورة الفنية إشراقاً وبهجة. ولعل ربط النساء بالبيض معروف لدى امرئ القيس في حديثه الغزلي الشهير في معلقته، وهي الطريقة التي اتبعها الأعشى حين انتقل مباشرة من النسيب والغزل إلى ذكر الصحراء المقفرة جاعلاً بيض النّعام جسراً إلى ذلك، فيقول[4]:

وَقَامَتْ تُرِيني بَعْدَ ما نَامَ صُحْبَتي بَيَاضَ ثَنَايَاهَا وَأَسْوَدَ حَالِكَا

وَيَهْمَاءَ قَفْرٍ تَحْرُجُ العَيْنُ وَسْطَهَا وَتَلْقَى بِهَا بَيْضَ النَّعَامِ تَرَائِكَا[5]

فالأعشى قطع حبال صاحبته ذات الثغر البراق والشعر الأسود الفاحم، وودع عهدها ليخترق الصحراء العمياء التي لا يهتدي بها مسافر حتى النّعام ذهل عن احتضان بيضه، فتركه عارياً مثل ما فعل الأعشى بصاحبته "تَيَّا".

وبيض النّعام يذكرنا بالرؤوس التي حملتها ذات يوم الناقة التي تُسمَّى الدُّهَيْم، وقد ظن الزَّبَّان أن المخلاة تحوي بيض النّعام، ولما أخرج ما بها فإذا هي رؤوس أولاده فقال: آخر البَزِّ على القَلوص، وضُرب المَثَل بحِمْل الدُّهَيْم، فقيل أَثْقل

---

١ - المَيْثاء: الأرض السهلة اللينة. والمِحْلال: المختارة للنزول.

٢ - قُراقِر: علم مرتجل لاسم موضع، وهو واد لكلب بالسماوة من ناحية العراق، وقيل هو ماء لكلب، انظر معجم البلدان (قراقر).

٣ - انظر المسبار في النقد الأدبي ١٠٤- ١٠٥

٤ - ديوان الأعشى ١٢٥.

٥ - اليَهْماء: الصحراء العمياء المطموسة المسالك. والحرج في العين: الحَيْرة، والترائك: جمع تَرِيكة، وهي المتروكة.

obeikandl.com

من حِمْل الدُّهَيم[1].

وثبت ذكر البيض في معرض تشبيه رؤوس الفرسان وعليها الخُوَذ، كقول النابغة الذبياني[2]:

فَصَبَّحَهُمْ بِهَا صَهْبَاءَ صِرفاً كَأَنَّ رُؤوسَهُمْ بَيْضُ النَّعَامِ[3]

أتت الكتيبة صباحاً وعلى رؤوس فرسانها ما يشبه بيض النّعام، وثبتوا في ساحة المعركة كأن النّعام باض عليها[4] كما يقول سلامة بن جندل[5]:

كَأَنَّ النَّعَامَ بَاضَ فَوْقَ رؤوسِهِمْ بِنَهْيِ القِذَافِ أو بِنَهْيِ مُخفِّقِ[6]

فالرابطة الدلالية تستند إلى معطيات الواقع، في حين تستند الرابطة الظاهرية إلى طبيعة الشكل، ما يؤكد أن التماسك بين الشكل والدلالة في مشهد النعام يحقق إثارة مكثفة في النفس، من دون أن يحدث أي فجوة معنوية في أنساق الوحدة الفكرية التي تنتظم داخل النص الشعري. فإذا كانت المرأة، أو رؤوس الفرسان المزينة بالقوانس البيض هي جوهر الصورة وهدفها فإن الشاعر استطاع أن يوفق بين هذا الجوهر وبين المشبه به وفق نزعة التخيل المنطقي. ولعل هذا كله لا يخرج عن مفهوم النظرية السياقية التي تبنيناها للوصول إلى الدلالة التي يرمي إليها اللفظ والصورة، دون أن نفصل ذلك عن نظرية الحقول الدلالية.

وعلى غنى مشهد النّعام بالمعطيات النفسية والفكرية من خلال تعدد الصور فإنه لم يكن ليعوض من المشاهد الأخرى لعتاق الطير وسباعها.

---

١ - انظر مجمع الأمثال ٣٧٨/١ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٤٩/١- ٢٥٣ وجمهرة الأمثال ١٤٣/١ و٢٩٣.

٢ - ديوان النابغة الذبياني ١٣٥ وت.د (شكري فيصل) ١٦٤.

٣ - الصَّهْبَاء: الخمر. والصَّرْف: الخالصة، شبه ما هم فيه من القتال وما يلقون من شدة الحَيْرة بقوم سكروا. وبيض النّعام: الخُوَذ التي على الرؤوس.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٢٧ وقصائد جاهلية نادرة ١١١.

٥ - ديوان سلامة بن جندل ١٦٧.

٦ - النَّهي: (بكسر النون وفتحها) الموضع الذي له حاجز فلا يفيض الماء منه، وقيل: هو الغَدِير. والقذاف: موضع بديار بني سعد بن زيد بن مناة. ومُخَفِّق: رمل في أسفل الدَّهْنَاء من ديار بني سعد، معجم البلدان (قذاف) و(مخفق).

obeikandi.com

٣- عتاق الطير وسباعها

مشاهد الطير القوية والضعيفة تحمل كثيراً من الصفات التي أسقطها الشعراء على البشر مثلما أسقطوا بعضها على صفات خيلهم. وقد غلب باب الفخر والمدح على مشاهد سباع الطير بينما كان الهجاء من نَصيب بغاث الطير مهما تحمل من صفات حميدة.

ويثبت الشعر الجاهلي أن مشاهد عتاق الطير وبغاثها ولئامها يتداخل بعضها في بعض حتى كادت لا تنفصل، ولا أدل على هذا من قول العباس بن مرداس[١]:

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِراخاً وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ[٢]

ضِعَافُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا جُسُوماً ولمْ تَطُلِ البُزَاةِ ولاَ الصُّقُورُ[٣]

ولكن ذلك لا يمنع أن نرى صورة العتاق والسباع منفصلة عن غيرها، وتكاد تقتصر مشاهدها على العقاب والصقر، والصقر يطلق على الجوارح كلها إلا العقاب[٤]، وهو يقع على البازي والشاهين، وهذا أصغر حجماً من البازي، والبازي دون الصقر في الحجم، بينما النسر أكبر الجميع حجماً بما فيها العقاب.

ويتقدم مشهد الصَّقر ليخبر عن صفات الفرسان[٥] وخيلهم[٦] المنقضة، فهو مَثَل للقوة والسرعة، ولا سيما أن أساس قدرته يكمن في مخالبه[٧] وجناحيه، والصقر

---

١ - ديوان العباس بن مرداس ٥٩ وهو في شرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ١١٥٤/٣ وحياة الحيوان الكبرى ١٣٨/١ وكتاب العصا ١٨٥/١ ونُسب إلى غير ما شاعر، انظر الحيوان ٦٠/٧- ٦١ و٧٩ وجمهرة أنساب العرب (لابن حزم) ٢٨٢.

٢ - بُغاث الطير: صغارها. والمِقْلات: التي لا يكثر لها ولد، ومن النساء التي لا يعيش لها ولد.

٣ - البُزاة: جمع (بازٍ) وهو ضرب من الصقور يصيد بطَبْعه.

٤ - انظر المصايد والمطارد ٨ و١٤٨ ونهاية الأرب ٢٠٤/١٠ وشرح ديوان لبيد ١٩٥ وحياة الحيوان الكبرى ١٠٨/١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ١٤٢ (صادر) والمفضليات ٢٣٩ و٤٩٠ والأصمعيات ٦٠ ق١٤.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٢٠ وعامر بن الطفيل ٩٣ والأعشى ٥٧ و٧٧ وشعر زهير بن أبي سُلمى ٢٥١ وسمط اللآلي ٧٩١/٢ وراجع ما تقدم ١٩٨ وما بعدها.

٧ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٩٩.

obeikandl.com

والصقر يحمي مجالاً واسعاً لا يرومه أحد[1]. ومن هنا فقد شُبِّه الأعداء بطريدته سواء كانت من الظباء أم غيرها، كقول الحارث بن حِلِّزَة يفتخر بأنه ركب فرساً طويلاً ذَعر به ثُلَّة من الظباء[2] الحسان، فتفرقن كما لو انفرطت لآلئ عقد، ثم يشبه فرسه بصقر يطارد حماماً لاذ بشجر قريب، فيقول[3]:

فَكَـــأَنَّهُنَّ لآلِـــئ وكأَنَّـــهُ صَـقْرٌ يَلُـوذُ حَمَامُـهُ بالعَوْسَـجِ[4]

صَـقْرٌ يَـصِيدُ بظُفْـرِهِ وجَناحِـهِ فـإذا أصَـابَ حَمَامـةً لَـمْ تَـدْرُجِ

فمشهد الصيد يمثل رمزية الافتخار بقتل الآخر، وكأن هذا الافتخار لا يتجسد فعلاً خارقاً إلا إذا اقترن بالموت، وهذا ما كان قد ظهر من قبل في مشهد عصائب الطير التي ترافق الجيوش، أو في مشهد الخيل والحرب. فإذا كانت الطير في هذين المشهدين تستشعر الطعام بجثث قتلى البشر؛ على حين تفرح الضباع بكل قتيل يسقط[5] فإن الصقر في مشهد الحارث بن حِلِّزة الذي سبق ذكره يرمز إلى الفرس الذي يجسد بطولة الفارس على حين ترمز الحمام إلى الضِّعاف من الخصوم والأعداء....ولعل مشهد الصقر يتميز بشدة الانقضاض على الطريدة، ومتابعتها حتى لا تفر منه، ما يعني أن قرينة المشابهة وفق النظرية السياقية تقدّم معطيات كبرى في تكثيف الدلالة التي يرمز إليها الصقر وضعاف الطير.... ولهذا رأينا الحارث

ينتقل مباشرة إلى الافتخار بكتائب قومه الذين يقطعون رؤوس الأعداء. وطالما اشتُهر رَبِيْعة بن مُكَدَّم بالشجاعة والقوة، وشاع أمره بين الجاهليين بأنه حامي الظَّعينة، فما كان من دريد بن الصمة إلا تشبيهه بالأجدل الذي أخاف بغاثاً فهَرَبْنَ منه[6]:

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ١٤٢.

٢ - انظر المفضليات ٢٥٦ ب٤.

٣ - المفضليات ٢٥٦ ق٦٢ وشرح المفضليات ٩٢٦/٢.

٤ - العَوْسج: الشجر. وعن الأصمعي أنه خَصَّ العوسج للقافية (المفضليات).

٥ - انظر ما يأتي ٣١٨ (مشهد الضباع)

٦ - ديوان دريد بن الصمة ٩٥ والأمالي للقالي ٢٧١/٢.

openkandil.com

مَـا إنْ رَأَيْـتُ وَلاَ سَـمِعْتُ بمِثْلِـهِ حـامِي الظَّعِينَـةِ فَارسـاً لَـمْ يُقْتَـلِ
وَتَـرى الفَـوارِسَ مِـنْ مَخَافَـةِ رُمْحِـهِ مِثْـلَ البُغَـاثِ خَـشِيْنَ وَقْـعَ الأَجْـدَلِ

ومشهد الصقر عند عنترة مُسَخَّر لإبراز فروسيته فهو ينقضُّ بفرسه على الأبطال كالأجْدَل[1]:

فَعَلَيْـهِ أَقْـتَحِمُ الهِيـاجَ تَقَحُّمـاً فيهـا وأَنْقَـضُّ انْقِـضاضَ الأَجْـدَلِ

وصفة الصقر تلك صفة في أصل طبعه[2] فهو يصيد دون تعليم، ولكن الجاهليين لقنوه فنوناً من التدريب[3] كقول لبيد بن ربيعة[4]:

لَقَنْـتُ لنـا بَـوازِيَ صـائِداتٍ وطَيْـرُكَ في مَكامِنِهَـا لَبُـودُ[5]

ومن هنا ندرك أن العرب فرقوا بين أنواع الصقور فالشاهين يقتل نفسه إذا جاع ولم يجد ما يصيده أو يأكله لأنه لا يميل إلى الجيف[6]، على حين أن العقاب تفعل هذا لتحافظ على حياتها وإن كانت من العتاق.

والعقاب طير لاحم[7] يأتي بعد النَّسر في الحجم ويصيد بنفسه حيوان الوحش والطير، فالعقاب تقدر على الذئب والغزال وتمرّغ أنفهما بالتراب دون أن تراوغ في طلبهما[8].

---

١ - ديوان عنترة بن شداد ٢٦٢. وانظر ديوان عامر بن الطفيل ٩٣.

٢ - انظر المصايد والمطارد ٥٤ والحيوان ١٨٢/٣ و٤٧/٤ و٢٢٩ والمخصص ١٥٠/٨ ونهاية الأرب ١٩١/١٠ و١٩٣- ١٩٤ وحياة الحيوان الكبرى ١٠٩/١- ١١٠ و٥/٢.

٣ - قيل: إن أول من ضَرَّى الصقور الحارث بن معاوية بن ثور، انظر المصايد والمطارد ٨٤- ٨٥ والحيوان ٤٧٨/٦ ونهاية الأرب ١٩٨/١٠ وتفسير النسفي ٢٧١/١.

٤ - المصايد والمطارد ٤٩ ولم يروه الديوان.

٥ - لَبُود: مختبئة ولاصقة بالأرض.

٦ - انظر نهاية الأرب ١٠٢/١٠.

٧ - راجع ما تقدم ١٩٩ وما بعدها.

٨ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٩٢ والحيوان ٣٣٩/٦ و٣٤١ و٣٤٣ و٤٠٧ وراجع ما تقدم ٢٠٢ وما بعدها.

obeikandl.com

وتعددت أسماء العقاب ومنها "فَتْخَاء وصَقْعَاء ولِقْوَة"[1]، وغير ذلك[2].

وعرضت مشاهد العقاب لصفة الانقضاض والسرعة وانتهت إلى إطار مجازي حين استعملت في صور شعرية مختلفة في الأشخاص[3]، وإن كان استعمالها الأشهر في تشبيه الخيل[4]. وقد اتخذت سبيلها إلى الحديث عن صفات القوة والقدرة والمناورة في معارك الصيد[5] فاقتطفت من فكرة التنازع على البقاء صفة من الصفات[6] فالمشهد الذي يركز على صفة انقضاض العقاب على الطريدة فإنما يرمز إلى حالة من الاستعلاء والخيلاء التي يتصف بها المفتخر حين يركز على صفة الارتفاع في الجو، وهو ارتفاع لايمكن أن يرتقي إليه طير آخر... ومن هنا يمكن أن يبرز مشهد العقاب صورة النقيض في معرض الهجاء حين يقذف به الشاعر بعيداً، حتى قيل: حلقت به في الجو عقاب[7]، كقول امرئ القيس[8]:

كأَنَّ دِثَاراً حَلَّقَتْ بلَبُونِهِ عُقَابُ تَنُوفى لا عُقابُ القَواعِلِ[9]

وحين اكتملت للعقاب هذه الصفات كلها بما فيها العقاب التي عرض لها عبيد بن الأبرص في قصيدة المشهورة التي سبق ذكرها فإن بعض العرب جعل راياته على هيئتها وعقدها فوق جيوشه[10].

---

١ - البيزرة ١١١ وانظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٣٦ و٤٧ و١٤٨ والمفضليات ٣٧ ق٥ وقصائد جاهلية نادرة ١١٠.

٢ - انظر مثلاً: المفضليات ٣٩ ق٦ و١٤٢ ق٢٦.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٥ والمفضليات ١٦٥ ق٣٢.

٤ - راجع ما تقدم ١٩٩ وما بعدها.

٥ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٥ و١٨٩ والمفضليات ٤٠ ق٦.

٦ - راجع ما تقدم ١٩٩ و ما بعدها.

٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٠٧.

٨ - ديوان امرئ القيس ٩٤.

٩ - دِثار: اسم راعي الإبل. واللَّبُون: ذات لَبَن. وتنوفَى: جبل مُشْرِف من جبال طيئ. والقَوَاعل: جبال صِغار غير طوال. وحلَّقت بلبُونه: أي ذهبت بإبله.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٤٢١ وبشر بن أبي خازم ١٨٣ وعبيد بن الأبرص ٦ وعامر بن الطفيل ٢٣، وكانت راية الرسول (ص) على هيئة العقاب، انظر الأنوار ومحاسن الأشعار ٢٧٨/١.

openkandil.com

وبهذا كله تقود هذه المشاهد إلى الحديث عنها، فدريد بن الصمة ينعت رجلاً ببيضة فاسدة حواها شر الطير وبغاثه بعد أن مات فرخها عنها، وهو ليس من العتاق كالعقاب، فيقول[1]:

وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ بَيْضَةٌ مَاتَ فَرْخُهَا ... ثَوَتْ فِي سُلوخِ الطَّيْرِ فِي بَلَدٍ قَفْرِ[2]

حَوَاهَا بُغَاثٌ شَرُّ طَيْرٍ عَلِمتُهَا ... وَسُلاَّءُ لَيْسَتْ مِنْ عُقَابٍ وَلا نَسْرِ[3]

كما وقفت المشاهد عند صفة العقاب في الحرب وكأن الأعداء شالت بهم العقاب كناية عن هزيمتهم وكثرة قتلاهم، وافتخاراً بما قام به المنتصر[4].

وتشير المشاهد إلى أن العقاب مالت إلى الجثث مع النَّسْر وسباع الوحش، وتذكر هذا المعنى وفق منحى نفسي متميز تبعاً للغرض الذي تعالجه القصيدة. فامرؤ القيس يفتخر بأنه ركب خيلاً كثيرة، بعضها قد صار طعاماً للعقبان والنسور، فيقول[5]:

وحتى تَرَى الجَوْنَ الَّذي كانَ بَادِناً ... عَلَيْهِ عَوَافٍ مِنْ نُسُورٍ وعِقْبَانِ[6]

ويُسَخِّر بشر بن أبي خازم هذه الصورة في إنقاذ أوس بن حارثة له.[7]

ومن هذه المشاهد نجد أن الشعراء ألحقوا النسر بعتاق الطير وهو ليس كذلك. وإن كان أكبرها حجماً وأطولها عمراً، حتى صار رمزاً لطول العمر فقيل: أعمر من نَسْر[8]، واشتهر لُبَد في هذا[9].

---

١ - ديوان دريد بن الصمة ٧١.

٢ - سُلوخ: جمع سَلْخ، وهو ما يَسْلَخه الطير من ريشه ليضعه في عشه، انظر الحيوان ٤/٢٢٤.

٣ - بُغاث الطير: ضعافها. والسُّلاَّء: ضَرْب من الطير أغبر طويل الرجلين.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٤٠١ وبشر بن أبي خازم ١٠٧.

٥ - ديوان امرئ القيس ٩٣ وانظر مثلاً: آخر: قصائد جاهلية نادرة ١٠٣.

٦ - الجَوْن: الفرس الأسود، ويكون الأبيض أيضاً. والبادن: السمين. والعوافي: سباع الطير والوحش.

٧ - انظر ديوان بشر بن أبي خازم ١٠٧.

٨ - مجمع الأمثال ٢/٥٠ وجمهرة الأمثال ٢/٧٥.

٩ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٧٤ وتحقيق (إبراهيم الجزيني) ١٢٨ والوحشيات ١٤٣، وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٢٥٠ ـ ٢٥١.

obeikandl.com

فالنَّسر – وإن حمل صفات القوة حتى صار رمزاً لها منذ القديم – من الطيور الدنيئة كالغراب، والرَّخَمة وكلها تشارك الضباع والذئاب والثعالب في أكل الجيف. وطالما ذكر الشعراء هذه الصورة مفتخرين بأن قومهم تركوا جثث أعدائهم لتلك الحيوانات[1]، كقول دريد بن الصمة[2]:

تَرَى كُلَّ مُسْوَدِّ العِذَارَينِ فَارِسٍ يُطيفُ بِهِ نَسْرٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ[3]

وقد تكون التجارب أكسبته خبرة وهو الذي رافق الجيوش مراراً، وكأنه أدرك نتائج الصراع ولا بد من المغنم[4]، فلا غرو بعد هذا أن يلقب بالقَشْعم[5]. وحين تألم بعض الجاهليين لذويهم الذين تنتزع الطير عيونهم[6] فإن بعضهم الآخر افتخر أن يكون طعاماً لها، ولحمه لحم كريم كقول تأبط شراً[7]:

وإنْ تَقَعِ النُّسُورُ عَلَيَّ يَوْماً فَلَحْمُ المُعْتَفَى لَحْمٌ كَرِيمُ

ولعل هذه المشاهد تؤكد أن الجاهليين اعتقدوا بأن القتيل لا يدفن، وإنما قبره بطون الجوارح، ومما يقوي هذا الرأي مشاهد أخرى[8] كقول دريد بن الصمة[9]:

وَعَبْدُ يَغُوثَ تَحْجِلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وَعَزَّ المُصَابُ جَثْوَ قَبْرٍ على قَبْرِ

---

١ – انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٩٣ و٢٣٢ وأوس بن حجر ٣٠ وعامر بن الطفيل ١٦ وعنترة بن شداد ٢٢٢ والنابغة الذبياني ٤٢– ٤٣ وقصائد جاهلية نادرة ١٦٥ وديوان عدي بن زيد ٧٢ ق١١.

٢ – ديوان دريد بن الصمة ١٠٣.

٣ – العِذَران: العارضان من الخدّ. والعَرْفَاء: الضَّبُع، لكثرة شعر رقبتها. والجيأل: الضَّبع.

٤ – انظر نضرة الإغريض ٧٧.

٥ – انظر مثلاً: الأصمعيات ١٥٥ ق٥٣، والقَشْعم: المُسِنّ من النُّسور الذي طال عمره وازدادت تجربته (اللسان).

٦ – انظر مثلاً: ديوان امرئ القسس ٢٠٠.

٧ – ديوان تأبط شراً ٢٠٤.

٨ – انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢٣٣ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٤٤ و٣٥٣.

٩ – ديوان دريد بن الصمة ٦٣.

وتتعاظم النزعة الأنثوية في بعض المشاهد التي تدل على هذه المسألة. فقد تراءى لجَنوب حين رثت أخاها عمراً ذا الكَلَب أن النّسور تمشي إليه وتلهو بلحمه كما تمشي العذارى ذوات الجلابيب، فتقول[1]:

تَمشِي النُّسُورُ إليهِ وهْيَ لاهِيةٌ مَشْيَ العَذَارَى عَليهِنَّ الجَلابيبُ

ونسور جَنُوب لا يَفْرقْنَ من شيء على حين أن طيور عنترة تحجل في مشيها إلى القتيل كالنساء اللواتي يَزْفُفْن عروساً إلى زوجها وهن يرقصن ولكنها تمتنع عن الاقتراب منه لأن فيه حياة رِجْلٍ ويَد[2]. بينما يتحدث بشر بن أبي خازم عن طيور أقامت حول القتيل لا تدنو منه كالنّساء العوارك التي تنحَّت عن صنم إسَاف بمكة[3].

وإذا كان ذلك النهج أبرز معالم مشاهد النُّسور فإننا لا نَعْدم صوراً لها استُمدت من واقع الحياة الحربية عند العرب تبرز صفة من الصفات في معرض تشبيه ما. فالفرسان يصيحون صياح النّسور[4]، ومناقيرها الحادة لا يشبهها إلا أسنة الرماح المدماة كقول يزيد بن سنان[5]:

تَركْتُ الرُّمْحَ يَبْرُقُ في صَلاهُ كأَنَّ سِنَانَهُ خُرْطُومُ نَسْرِ

ولم تكن النسور متفردة في أكل الجيف وجثث القتلى، فلئام الطير وضعافها معروفة فيه. ولعل طبيعة المنهج تقضي علينا إشارة أخيرة إلى النسور بوصفها ارتبطت بفكرة الخلود ولاسيما نسور لقمان وآخرها (لبد)[6]، كما ارتبطت بالآلهة، حتى غدت صورة أحد الآلهة ممثلة بالنسر[7]، وكأنها تشي بصفة القوة والخلود في وقت واحد.

---

١ - ديوان الهذليين ١٢٥/٣.

٢ - انظر ديوان عنترة ٢٩٦.

٣ - انظر ديوان بشر بن أبي خازم ٢٣٣.

٤ - انظر شعر خداش بن زهير ١٨ و٣١ وديوان الهذليين ١ / ٢٠٥

٥ - المفضليات ٧١.

٦ - انظر لسان العرب (لبد) والحيوان ٦ / ٣٢٥ والحيوان في الشعر الجاهلي ٢٥٠ ـ٢٥١.

٧ - سورة نوح — ٧١ / ٢٣ .

oberkanal.com

٤ - لئام الطير

هذه الطيور أشهر من النسر بأكل الجيف لأن حياتها تقوم عليها ـ غالباً ـ، وأشهر لئام الطير هي الغراب والبوم وأخسّها في هذا الباب الرَّخَمة.

فالرخمة أَخَسّ[١] اللئام لأنها في حجم النَّسْر وأعظم، ولكن الغُراب يقوى عليها. وهي من الطير الذي يقارب النَّسر خِلْقة، ولونها مُبَقَّع بالأسود والأبيض، والرَخمة مفرد وجمعها الرَّخَم، ويقال لها: الأَنْوُق[٢].

ولعل أبرز المناهج الفكرية التي عرض لها الشعراء في مشهد الرخمة ما اعتمدت على صفة الغَدْر والجبن والمُوْق والقذارة والمشاركة في أكل الجثث، وإن لم تنعدم ضروب فنية أخرى. فلما كانت الرخمة جبانة الفؤاد جعلت بيضها في أماكن الوَعل، ولهذا ضُرب المثل ببيض الأَنْوُق[٣] في صور الشعراء، كقول المرقش الأكبر[٤]:

مِنْ دُوْنِهِ بَيْضُ الأَنُوقِ وفَوْ ... قَهُ طَوِيلُ المَنْكِبَيْنِ أَشَمُّ[٥]

أما اشتهار الرَّخَم بالقَذَر فلا يختلف عليه اثنان، ومنه قول العرب: رَخِمَ السَّقَّاء، إذا أنْتَن[٦]، والأعشى يفضل صورة الرخم لشهرتها بذلك حين يهجو رجلاً فيقول[٧]:

يا رَخَماً قاظَ عَلى يَنْخُوبِ ... يُعْجِلُ كَفَّ الخَارِئِ المُطِيْبِ[٨]

---

١ - انظر الحيوان ٣/٥١٩- ٥٢١.

٢ - اللسان (رخم) ومعجم مقاييس اللغة ٢/٥٠١.

٣ - الحيوان ٣/٥٢١ ومجمع الأمثال ١/١١٥ وثمار القلوب ٤٩٤ وجمهرة الأمثال ١/٢٣٨.

٤ - المفضليات ٢٣٨.

٥ - الأَنْوُق: عنى به الرَّخمة، لأنها تختار أبعد الأماكن لبيضها. والأشَمُّ: المُشْرِف. وطويل المنكبين: يريد جبلاً.

٦ - انظر اللسان (رخم).

٧ - ديوان الأعشى ٣٠١.

٨ - قاظ: من القيظ، وهو شدة الحر. واليَنْخُوب: الجبان، والينخوبة: الاست. والتطيب: الاستنجاء، أي إن الرخم يبادر إلى العُذْرة قبل أن يتطيب الرجل.

obeikandl.com

وإذا اتفق لها ذلك كله فلا غرابة أن تشارك عوافي الوحش والطير في أكل الجيف،وأن يستمد الشعراء[1] من هذه الصورة معاني مختلفة، كقول علباء بن أرقم[2]:

ورُحْنَا على العِبْءِ المُعَلَّقِ شِلْوُهُ وأَكْرُعُهُ والرَّأسُ للذِّئْبِ والرَّخَمْ

وينبغي أن نلتفت أخيراً إلى طبيعة مشهد الرخمة وغيرها فهي طبيعة تؤكد وظائفها ودلالتها بأساليب أقرب إلى المباشرة أياً كانت طبيعة الصورة البصرية والحركية،وأياً كانت الحقول الدلالية التي ترسخها في عالم القصيدة تجريدية أم حسية...

ذلك أشهر ما عرض له مشهد الرخمة التي لم تطاول الغُراب لؤماً وشراً. والغُراب طائر أسود أكبر حجماً من الحمام، ويُجمع غالباً على غِرْبان وأغْرِبَة[3]. ومن أسمائه الغُداف، وحاتِمٌ لأنه يحتم بالفِراق، والأعْوَر تطيراً منه، وابن دَأْيَة "لأنه ينقِّب عن الدَّبر حتى يبلغ دَأَيات العُنق"[4].

فالغراب لم يلحق العتاق وإن شارك سباعها في أكل جثث القتلى، وبقي على رأس طبقة لئام الطير، وقد لزمه لقب غراب البين لأنه ينذر بالفراق بين الناس حتى صار رمزاً للشؤم[5] ولا سيما صوته.

وأرسى مشهد الغراب ذلك، كما جعل جملة من التقاليد الفنية الأخرى، فتناول مرافقَته للإبل التي سميت به[6]، وقُوَّتَه التي في منقاره لا براثنه[7]، ولونَه الأسود، وصفاءَ عينه. ومشهد الغراب قد ينتصف لهذا الطائر فيمنحه بعض صفات

---

١ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ١٠٦ وشعر زهير ١٠٦ وعمرو بن معد يكرب ١٣٤ وقصائد جاهلية نادرة ١٣٤.

٢ - الأصمعيات ١٦٠ ق٥٥.

٣ - اللسان والتاج والقاموس المحيط (غرب).

٤ - انظر الحيوان ٤٣٩/٣ وانظر فيه ٣٤٦- ٣٤٩ و٤١٥- ٤٢٨ ودأيات العنق: خرزاته (اللسان).

٥ - راجع الحيوان في الشعر الجاهلي ١٥٥ ـ ١٦٤ ففيه تفصيل حول ذلك.

٦ - انظر الحيوان ٤١٨/٣- ٤٢٠.

٧ - انظر الحيوان ٣١٣/٢ و٤٥٤/٣.

obeikandl.com

المدح وإن لم يعرف ذلك عند العرب ـ عامة ـ فعبيد بن الأبرص يفتخر بأنه ترك حُجُراً الكندي للغربان تنقر عينيه[1]:

أَتُوعِدُ أُسْرَتي وتَرَكْتَ حُجْرَاً يُرِيغُ سَوادَ عَيْنَيْهِ الغُرابُ

فحدة منقار الغراب أشهر من أن تنكر، ويستمد أبو دواد منه صورة لمَنْسِم ناقته وهي تنفي به الحصى فيقول[2]:

تَنْفِي الحَصَى صُعُداً شَرْقِيَّ مَنْسِمِها نَفْيَ الغُرابِ بأَعْلَى أنْفِها الغَرَدَا[3]

أما لونه فهو مَثَلٌ للشباب[4]، أوللثبات على صفة[5] ما كالغباء والتعلق بالأحبة. ومن هنا امتدح السواد في الخيل[6] والإبل، ولم يمتدح في البشر إلا للشَّعْر، ولهذا ضرب شيب الغراب لما لا يكون أبداً كقول ساعدة بن جؤية[7]:

شَابَ الغُرَابُ ولا فُؤَادُكَ تَارِكٌ ذِكْرَ الغَضُوبِ ولا عِتابُكَ يُعْتَبُ

وامتُدح صفاء عين الغراب، فقيل: أَصْفى من عين الغراب[8]، ويقول أبو الطَّمَحَان: إنه يرد غدير ماء لم يَقْرَبه مخلوق قَطُّ، فيقول[9]:

إذا شَاءَ رَاعيهَا اسْتَقَى مِنْ وَقْيعَةٍ كعَيْنِ الغُرابِ صَفْوُهَا لمْ يُكَدَّرِ[10]

ولذلك كله فإن مشهد الغراب في القصيدة الجاهلية غني بجملة من القيم الفكرية والفنية، لأن صوره الحسية كانت منبعاً للصور المجازية.

---

١ - ديوان عبيد بن الأبرص ١ و(صادر) ٤٤.

٢ - الحيوان ٤٢٥/٣ و٤٥٤.

٣ - المنسم: خف البعير، وهو كالظفر للإنسان. والغَرَد: ضَرْب من الكَمْأة.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٠٧ والمفضليات ٢٣٦ ق٥٣.

٥ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ١٠٩ والأعشى ١٣٧ وعامر بن الطفيل ٢٢ وانظر الحيوان ٤٢٧/٣.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٢٦ وعنترة ١٩٣.

٧ - ديوان الهذليين ١٦٨/١.

٨ - انظر الحيوان ٤٢٣/٣ و٤٢٩ ومجمع الأمثال ٤١٧/١ وثمار القلوب ٤٦.

٩ - قصائد جاهلية نادرة ٢٢٠، وانظر الأغاني ١٤/١٣.

١٠ - الوقيعة: حَفيرة في صخرة يتجمع فيها ماء المطر.

obeikandl.com

ولعل هذا ما جعله مصدراً لبعض الحكايات التي عرفها العرب ولا سيما تلك التي نسجت بينه وبين الديك[1] ، فَصار رمزاً للغدر والخيانة وخسة الطبع. وقصة الغراب مع نوح (عليه السلام) مشهورة في هذا الاتجاه[2].

فمشهد الغراب، والطير – غالباً ـ يعبر عن استحضار الرموز العديدة في الحياة والموت، ويعبر عن مجموعة الرؤى الفكرية والاجتماعية التي سادت بين ظهراني الجاهليين، وامتد بعض أثرها إلى عصور لاحقة، ولاسيما تلك التي تتعلق بالأمور الغامضة في الطبيعة وماوراءها كالتطير [3] وصراع البقاء، ما جعل الجاهلي يعيش حالة مستمرة من القلق الوجودي.

أما ما يتعلق بتجسيد الفكرة، وتقريب كل ما هو بعيد غيبي إلى الذهن فإن الشاعر الجاهلي قد اعتمد مفهوم الصورة الحسية، ولاسيما البصرية الحركية ؛ وأضاف إليها في مشهد الطير السمعية (الصوت)....وهو يستند في ذلك إلى عناصر الطبيعة التي يعيش فيها ، بما فيها الطير ؛ ما يعني أن الصورة الحسية الجاهلية هي نتاج العقل القريب الذي يتعامل مع الطبيعة الواقع ؛ بيد أنها كانت صورة مشهدية مثيرة معبرة عن الوعي العالي بالوسط المحيط والإفادة منه للتعبير عن المشاعر والأفكار..

اختلفت الرؤية الفكرية في مشهد الغراب عن مشهد طير غيره، ففي صفات الفراق والشؤم والإنذار بالدمار ....ومن لا يجاري الغراب إلا طائر البوم، والبُوم أو البومة طائر يقع على الذكر والأنثى[4] ، وخُص الذكر بالصَّدَى والضُّوَع والفَيَّاد[5] ، بينما خصت الهَامَة بالأنثى[6] ، وكُنية الأنثى أُمُّ الخَرَاب، وقد يقال لها: غراب الليل[7] ، لأنها لا تطير إلا فيه غالباً.

---

١ – انظر مثلاً: ديوان أمية بن أبي الصلت ٢٧٠- ٢٧١.

٢ – انظر الحيوان ٢٩٨/١ و٣١٨/٢ و٣٢١ و٥١٣١٣ وحياة الحيوان الكبرى ١٧٣/٢- ١٧٤.

٣ – انظر كتابنا (الحيوان في الشعر الجاهلي ١٥٢ وما بعدها) .

٤ – انظر اللسان (بوم) وحياة الحيوان الكبرى ١٦٠/١.

٥ – انظر اللسان (فيد) و(بوم) و(هوم) و(صدي).

٦ – انظر اللسان (هوم) و(صدي).

٧ – انظر حياة الحيوان ١٦٠/١ وراجع كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٢٢٣ ــ ٢٢٩ فهو يحتوي على تفصيل أكثر.

obeikandl.com

ومشهد البوم في القصيدة الجاهلية ذو مضامين تعبيرية وتصويرية مُتعددة، فالبوم من أنكد الطير وأقبحها منظراً وصوتاً، ولا يألف إلا الأماكن الخالية والخَربة والموحشة، ولا يُشاهَد غالباً إلا في الليل، لصفة الجبن ممن يفترسه ولرداءَة بصره، ولهذا يطلب رزقه فيه.

وإذا كان مشهد البوم يتناول عدداً من الصور الأخرى فإنه يلزمنا بالوقوف عند جوانب مما تقدم. فالبوم من طيور الصحراء وكأنه إحدى علاماتها، ولهذا يفتخر الشعراء بأنهم يقطعون الفيافي التي لا يُسْمَع فيها إلا نئيم البوم[1]، ويوضح ذلك علقمة الفحل قائلاً يوم ركب ناقته عبر الفلاة[2]:

بمِثْلِها تُقْطَعُ المَوْمَاةُ عَنْ عُرُضٍ إذا تَبَغَّمَ في ظَلْمَائِهِ البُومُ

وربما تتصاعد من ها المشهد وأمثاله رائحة الموت؛ وضروب الفناء والحيرة والريبة والعجز حين صار البوم رمزاً مكثفاً لكل حالات الإنكسار والخوف والقلق...والموت. ومن ثم طفق الشعراء يبرزون هذه المعاني ليؤكد وافيها قدرتهم وقدرة رواحلهم في صميم حالة من الاستعلاء الذاتية أمام قهر الزمن، ومصاعبه...

وحين كان مشهد البوم يعبر عن ذلك كانت روح الفن تمتح جماليتها من معين البيئة وعناصر الطبيعة الحية والجامدة، وصميم المشاعر الذاتية والأفكار الاجتماعية التي ملأت مخزون هذا المشهد.

ولذا فإن صفة الجبن في البوم معروفة لجوارح الطير قبل البشر، وكلها تدرك طبع البوم وتعلم أنها تختبئ في النهار، فإذا وقع عليها أحد الجوارح ضَرَبها ونَتَف ريشها، وهي تطير حوله حتى يقضي عليها، ومن هنا استمد الصيادون طرائق لهم في نصب البوم فخاخاً للجوارح[3]. وقد أدرك البوم صفة الخوف ممن هو أقوى منه، فتراه لائطاً بالأرض ساكناً، يراك ولا تراه على امتلاء نفسه بالرعب منك وهذا

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٣٨ والأعشى ١٣٩ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٤٩ ـ ٥٠.

٢ - ديوان علقمة الفحل ١٣٥.

٣ - انظر الحيوان ٢/٥٠ و٥/٢٠٤ وحياة الحيوان الكبرى ١/١٦٠.

openkanal.com

جزء معبر ومثير عما يجري في الطبيعة من صراع قاتل... وقد استفادت الخنساء من هذه الصفة فمثلت بها صفة الهموم التي أثقلت النفوس في قولها[1]:

مَـرَّ الحَـوَادِثِ يَنْقَـادُ الجَلِيْـدُ لهَـا ويَـسْتَقِيمُ لهَـا الهَيّابَـةُ البُـوْمُ

ولذلك كله زخر مشهد البوم بجملة من الصور[2] الفكرية والتعبيرية سواء تلك التي قيلت في شؤمه[3] ونكده أم تلك التي عرفت في ضُروب من المعتقدات عند العرب حول الهامة والصدى[4].

وأياً كان مشهد البوم ودلائله فإنه يثبت أن البوم من لئام الطير تفترس كل ما هو أضعف منها، ولهذا لا تُلحق بالضعاف والبغاث من الطير، وإنما تُلحق باللئام والجوارح.

٥- ضعاف الطير

مشهد ضعاف الطير أكثر تمثيلاً لصفات الفزع والخوف من المشاهد التي تقدم ذكرها، وهو يحقق اتجاهات فنية وفكرية ونفسية تلاقي ما عرض سابقاً إن لم تزد عنها. وهذا المشهد يشبه تلك المشاهد بأنه وجه من وجوه التمثيل والإيضاح إلا أنه أوفر حظاً من حيث عدد الأبيات وتفصيل صوره، وأشهر ضعَاف الطير الحُبَارى والقطا.

أم الحُبَارى فهو طائر يقع على الذكر والأنثى، والواحد فيه والجمع سواء، وقيل للذكر خَرَب، ويَحْبُور، وهذا يجمع على الحَبَابير واليحابر[5].

---

١ - ديوان الخنساء (صادر) ١٢٧.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٤٩ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١١٤.

٣ - انظر ما ورد في (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٤٩ و ١٥٥ ـ ١٥٦.

٤ - الحديث مفصل في (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٢٢٣ و ما بعدها.

٥ - اللسان والتاج والقاموس المحيط (خرب وحبر) والحيوان ٤٤٩/٥ وحياة الحيوان الكبرى ٢٢٥/١- ٢٢٧.

obeikandl.com

والحُبارى أكبر من الدَّجاج، طويل العنق ورمادي اللون في منقاره بعض الطول[1] وله في دبره خزانة[2]. وهو أبعد الطير نُجعة، حتى قيل: إنه يموت بذَنْب ابن آدم، لأنه يخشى على نفسه[3] منه.

ومن هنا فإن مشهد الحبارى في القصيدة الجاهلية ضم تلك المعاني في إطار فني موحٍ. فوقف عند صفة السَّلَح وهو سلاحه، وعرض لهوانه وذله في صفة الأشخاص، وغير ذلك من الصور.

فالحبارى نوع من الطير يستعين بآلة لئيمة على مقاومة من هو أقوى منه، وتتمثل هذه الآلة بالسلح، ويفزع إليه عند الحاجة[4]، فيلقي به فيُنْتَف ريشه[5]. ووظف زهير بن أبي سلمى هذه الصورة في هجاء عوف بن شمَّاس قائلاً[6]:

مَنْ يَتَجَرَّمْ لي المَناطِقَ ظَالماً ... فيَجْرِ إلى شَأْوٍ بَعيدٍ ويَسْبَحِ[7]

يَكُنْ كالحُبَارى إنْ أُصيبَتْ فمثلُها ... أُصيبَ وإنْ تُفْلِتْ مِنَ الصَّقْر تَسْلَحِ

كعَوْفِ بْنِ شمَّاسٍ يُرَشِّحُ شِعْرَهُ ... إليَّ أَسِدِّي يامَنِيَّ وأَسْجِحِي[8]

فالسلاح الذي هيأه الله للحبارى لتدافع به عن نفسها لم يجعلها كريمة وإنما زادها هواناً، فهي ترقب الصقر باستمرار[9].

---

١ - انظر حياة الحيوان الكبرى ٢٢٦/١.

٢ - انظر الحيوان ٢٩/١ و٢٤٨ و٣٠٦/٢ و٣٢١/٥ و٣٧٣ و٤٤٥ و٣٧٣/٦ و٣٧٧ و٦٠/٧ وثمار القلوب ٤٨٣- ٤٨٤ ومحاضرات الأدباء ١٨٧/٣ وانظر مثلاً: المفضليات ٣٢٩.

٣ - انظر حياة الحيوان الكبرى ٢٢٦/١ واللسان (حبر).

٤ - انظر الحيوان ٢٩/١ و٢٤٨ و٣٠٦/٢ و٣٢١/٥ و٣٧٣ و٤٤٥ و٣٧٣/٦ و٣٧٧ و٦٠/٧ وثمار القلوب ٤٨٣- ٤٨٤ ومحاضرات الأدباء ١٨٧/٣ وانظر مثلاً: المفضليات ٣٢٩.

٥ - انظر حياة الحيوان الكبرى ٢٢٦/١.

٦ - شعر زهير بن أبي سلمى ٢٢١- ٢٢٢.

٧ - يتجرم: يتجنى. والمَناطق: جمع منطق، وهو النُّطْق، ويريد: من يتقوَّل علي كلام السوء ظلماً يكن مثل الحبارى. والشَّأْوُ: الطَّلَق والغاية.

٨ - يرشح شعره إلي: يبعث به إلي. ويا مَنيَّ: يا مَنِيَّةَ. وأسْجِحي: ارفقي وأحسني.

٩ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٣٢.

openkandi.com

ولا تختلف صورة الذَّكر اليَحْبُور أو الخَرَب عن ذلك حتى لو اتخذها الناس اسماً[1]، فدريد بن الصمة يشبه نفسه بخَرَب جُزَّت قوادمه فيقول[2]:

كـأَنَّني خَـرَبٌ جُـزَّتْ قَوَادِمُـهُ أَوْ جُثَّةٌ مِنْ بُغاثٍ فِي يَدَيْ هَصِرِ[3]

فالحبارى صورة للذلة والضّعف والهوان، والعجز، ما جعلها ترتبط في الشعر الجاهلي ببغاث الطير وضعافها، ومن ثم تستخدم في الهجاء وإلصاق صفاتها بالمهجو، على حين يظل للهاجي صفة القدرة والفعل...ولهذا دخل مشهد الحبارى في صميم مشهد الحرب ـ أحياناً ـ لوصف الفرسان بها تعبيراً لهم، كما وجدناه عند زهير وأوس بن غلفاء مثلاً[4].

ومن هنا تظهر الحبارى صورة للذلة في كل شكل حتى الأشياء كالنّعل التي أبلتها الشمس[5]. وقد أبدع أبو ذؤيب الهذلي حين شبه بها امرأة خائفة تنظر من خلف جبل في قوله[6]:

تَوقَّى بِأَطْرافِ القِرَانِ وعَيْنُها كعَيْنِ الحُبَارَى أَخْطَأَتْهَا الأَجَادِلُ[7]

تلك هي أبرز الاتجاهات في مشهد الحبارى دون أن يعدم المرء صوراً أخرى له، فالحبارى في الشعر تضرب مثلاً في الحنين إلى الفراخ[8]، وكانت هذه الصفة من خصائص النّعام والإبل. وهو مشهد مظف فنياً وموضوعياً لغيره في سياق النسق العام لوحدة القصيدة مثله مثل بقية مشاهد الطير...فكل منها موضوع لإبراز صورة غيرها، وتقديم العناصر الفنية الجمالية الأخرى، وهي عناصر تؤسس مفهوم

---

١ - انظر مثلاً: ديوان طرفة بن العبد ١٥٦ ودريد بن الصمة ٨٨ وشعر خداش بن زهير ٢٣.

٢ - ديوان دريد بن الصمة ٦٦.

٣ - جُزَّت: قُصَّت. والهَصِرُ: أراد الأسد المفترس.

٤ - انظر الأصمعيات ٢٣٣ وشعر زهير ٢٢١ .

٥ - انظر مثلاً: ديوان الشماخ ١٣٨.

٦ - ديوان الهذليين ٨٢/١.

٧ - توقى: تشرف. والقران: الجبال الصغيرة. والأجادل: الصقور.

٨ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ٢٦٠.

obeikandi.com

التحليق إلى آفاق بعيدة تؤكد براعة الجاهليين في تمثّل كل ما يحيط بهم في إطار إعادة فن موازٍ للحياة وللمشاعر....

ولعل مشهد القطا يبرز جملة جديدة من القضايا الفنية والفكرية الأخرى. والقَطَا طير الصحراء الأول وهو أصغر حجماً من الحمام، واحدته قَطَاة[1]. فهو ينتقل في مجاهيل البادية، فإذا أقام بمكان واحد قيل أُبَّد، كقول قيس بن الخطيم[2]:

وماءٍ على حَافاتِهِ أُبَّدُ القَطا تخَالُ بهِ دِمْنَ المعاطِنِ إثمِدَا[3]

وقيل في اسمه: إنه سمي به لثقل مشيه، أو لأن صوته القَطْقَطة (قطاً قطاً)[4]. ودل عليه قول النابغة[5]:

تَدْعُو القَطَا وبهِ تُدْعَى إذَا انْتَسَبَتْ يا صِدْقَها حِيْنَ تَلْقَاها فتَنْتَسِبُ

ويتوقف النابغة في قصيدته السابقة عند وصف طريف لفرخ القطا الذي أخذ ريشه ينبت بعد أن تلقانا بذكر واحد من أنواعه. وأنواعه تبعاً للونه ثلاثة، فالجُوْنيُّ ما كان أسود البطن وبطن الجناح[6]، وهو أضخم القطا، وتعدل الواحدة منه كُدْريتين. وذكره المثقب العبدي حين شبه مَوَاصل الذراعين والعضدين لناقته بأفحوص جُونِيَّة فقال[7]:

كأَنَّ مَواقِعَ الثَّفِنَاتِ مِنْها مُعَرَّسُ باكِراتِ الوِرْدِ جُوْنِ

وقد يقال للغَطَاط جوني، إلا أن الغَطَاط نوع ثان أرجله أطول من الجوني والكُدْري[8]، وعرض له عبيد حين امتدح نفسه بالخروج المبكر على فرسه الذليق[9]:

---

١ - اللسان (قطا) وانظر الحيوان ٢١٧/٥ و٥٧٩ وسمط اللآلي ٣٨/١.

٢ - ديوان قيس بن الخطيم ٢٢٠.

٣ - أُبَّد القطا: من أبَد بالمكان، إذا أقام به لا يبرحه. والمعاطن: مرابض الإبل. والإثْمِد: الكُحْل.

٤ - اللسان (قطا) وانظر الحيوان ٢١٧/٥ و٥٧٦ وسمط الآلي ٣٨/١.

٥ - ديوان النابغة الذبياني ١٧٧ وت.د (شكري فيصل) ١٧٧.

٦ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ٨٤ وشعر زهير ٢٥٢ واللسان (جون) و(كدر).

٧ - المفضليات ٢٩٠ ق٧٦.

٨ - انظر الوحشيات ١٤٣ واللسان (غطط).

٩ - ديوان عبيد بن الأبرص ٣١ (وصادر) ٤٧ وراجع ما تقدم ١٩٩ بعدها.

obeikandi.com

وقَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ الغَطَاطِ وصَاحِبي أَمِيْنُ الشَّظَا رِخْوُ اللَّبَانِ سَبُوحُ

وثالث الأنواع الكُدْري، وهو ما كان قصير الذنب والأرجل، ولكن ظهره يميل إلى الصفرة وبطن جناحه أبيض، وواحدته كُدْرِيَّة[1]. وذكرها النابغة قائلاً[2]:

أو مَرَّ كُدْرِيَّةٍ حَذَّاءَ هَيَّجَهَا بَرْدُ الشَّرائعِ مِنْ مَرَّانَ أو شَرَبُ[3]

وتثبت المشاهد المتقدمة جملة من الثوابت في حياة الجاهليين، فالقطا يخرج مبكراً إلى الماء ويهتدي إليه أينما كان، ولهذا صار مضرَب المثل بالصدق والهداية فقيل: أصدق من قطاة[4]، وغدا مظهر افتخار لقطع الفيافي التي لا يهتدى بها إلا[5] القطا، وشكلاً لامتداح بكورتهم قبل أن يسلك القطا في المنهل[6]، كقول لبيد بن ربيعة[7]:

فَوَرَدْنَا قَبْلَ فُرَّاطِ القَطَا إنَّ مِنْ وِرْدِيَ تَغْلِيْسَ النَّهَلْ[8]

ومن هنا نجد أن مشهد القطا يرصد غالباً – صفة السرعة وهو يتجه إلى المورد أو حين يفر القطا من الصقور والجوارح. وتسقط هذه الصفة على الخيل[9]، كقول امرئ القيس[10]:

---

١ – اللسان (كدر)، ونظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٨٤ وشعر زهير ٢٥٩ وعمرو بن شأس ٢٥ وأعجب العجب في شرح لامية العرب ٥٠ ورسالة الصاهل والشاحج ٩٧.

٢ – ديوان النابغة الذبياني ١٧٦.

٣ – حَذَّاء: خفيفة سريعة قصيرة الذَّنَب. ومَرَّان: موضع ماء. والشَّرَبُ: ماء يكون حول الشجرة.

٤ – الحيوان ٥/ ٥٧٨ ومجمع الأمثال ٤١٢/١ وسمط اللآلي ٧٨/١ ومحاضرات الأدباء ٦٧٣/٤ ورسالة الصاهل والشاحج ٣٧٩.

٥ – انظر مثلاً: المفضليات ٢٥٩ ق٦٤.

٦ – انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٤ وعبيد بن الأبرص ٨٩ و٩٢ والأصمعيات ١٨٣ ق٦٣ والحماسة البصرية ٦٣/١.

٧ – شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٨٣.

٨ – فُرَّاط القطا: أوائلها. ووِرْدي: عادتي. والتَّغْليس: السير في ظلمة آخر الليل. والنَّهَلُ: الشَّرْبَة الأولى، والعَلَلُ: الشَّرْبة الثانية، وقيل: أراد المنهل ولكنه لم يستقم له البيت (الديوان).

٩ – انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٥٩ وشرح ديوان لبيد ٥٢ والأصمعيات ٥٤ ق١٢ والمفضليات ٣٦٩ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢١٢/١.

١٠ – ديوان امرئ القيس ١٢١.

obeikandl.com

إِذْ هُـنَّ أَقْـسَاطٌ كَرِجْـلِ الـدَّبَى أَو كقَطَـا كَاظِمَـةَ النَّاهِـلِ[1]

ولايمكن للمرء أن يتغافل عن رمزية القطا في دلالتها على الخصوم أو الأعداء في ساحات المعارك، وقد فروا، كما تغر القطا من صقر أو عقاب...فاستحضار هذه الصورة تشي بصراع البقاء، وإكسابها بُعداً إنسانياً لإظهار صفات المفتخر أو الممدوح أو المرثي...بصفات تؤكد التباين والمفارقة في الحياة والقيم الاجتماعية.

وسُخِّرت مشاهد القطا لإظهار نشاط الناقة[2]، وكانت راحلة الشعراء قد أخافت القطا في معرسه[3] مثلما أفزعه بُغَامها[4]. وقد تسقط هذه الصفة على البشر في باب الجبن والخوف[5]، أو يُضرب مشيها الثقيل مثلاً للمحبوبة[6]. فجعفر بن عُلْبَةَ يشبه أعداءه بقطا فرَّ من صقر[7]:

كـأَنَّ العُقَيْلِيِّـيْنِ يَـوْمَ لَقِيُـتُهمْ فِـرَاخُ قَطـاً لاَقَـيْنَ أَجْـدَلَ بَازِيَـا

ولا يفوتنا في هذا المكان أن نشير إلى ما وقع به ابن الأسلت من خطأ القياس حين شبه نفسه بقطاة كبيرة وشبه غيره بصغار القطا[8].

ولعل أفحوص القطاة الذي يدل على حجم القطاة وصغرها يُرْسي عدداً آخر من المعطيات الاجتماعية والفكرية والنفسية مما يغني القصيدة بالأخيلة الحسية الموحية.

~~وأفحُوص القطاة استعير لثنيات الناقة[1]، ورأس الإنسان[2]، وغير ذلك من الصور~~

~~وإن غلب[3] عليها ذكر الناقة~~

---

١ - أقساط: قِطع وفِرَق، يعني الخيل. ورِجْل الدَّبَى: القطعة من الجراد. والناهل: الذي دنا ليشرب وكاظمة: موضع قرب البصرة مما يلي البحر (معجم البلدان).

٢ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٠١ والأعشى ٦٧ و٣٥٣ والأصمعيات ٦٣ ق١٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٠٣ وشرح ديوان لبيد ١٠١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٢٥ والأصمعيات ٢٧ ق٣.

٥ - انظر شعر عمرو بن شأس ٢٥.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٨٩.

٧ - الوحشيات ٢٣ ق٢٨.

٨ - ديوان ابن الأسلت ٨٠ وانظر مجمع الأمثال ١٨١/٢.

obeikandl.com

وأفحُوص القطاة استعير لثفنات الناقة[1]، ورأس الإنسان[2]، وغير ذلك من الصور وإن غلب[3] عليها ذكر الناقة.

هكذا أثبت مشهد القطا أنه واحد من المشاهد التي حكَتْ جملة من تقاليد حياة الجاهليين[4] وأفكارهم، ونمطاً من تصرفاتهم ومشاعرهم؛ فالجامع بين المرأة والقطاة ـ مثلاً ـ يتجاى بصفة الرشاقة والخفة في الحركة، ويدل عليه قول المُنَخَّل اليَشْكُري حين وصف مغامرة له مع المتجردة قائلاً[5]:

فـــــــدَفَعْتُها فتَـــــــدافَعَتْ مَـــشْيَ القَطَـــاةِ إلى الغَـــديرِ

وبهذا تحققت صفة التوازن المباشر بين الواقع والشعر. واكتمل هذا المنهج بعرض مشاهد الطيور الأخرى وإن كان ذكرها لا يتعدى في أحسن الحالات بضعة أبيات.

٦ - مشاهد طيور أخرى

هذا المشاهد لا تقل إبداعاً عن سابقتها، وقد اتكأت على الأبيات المفردة غالباً لتقتطف من هذا الطير أو ذاك إحدى الصفات الحسية، فتسقطها على المشبه. ولهذا تتخذ القصيدة ضَرْباً من الإثارة التعبيرية كتنوع الصفات التي تحملها تلك الطيور، وإن كان بعضها قد اقتصر استعماله على عادات العرب وتقاليدهم كالزَّمَّاح والعَنْقاء[6].

ولهذا كله تتناول هذه المشاهد بعض الطيور كالحَجَل والحِدَأ والرَّهْو أو الكُرْكيّ والكَرَوان والسَّمَام، وتشير إلى الخُفَّاش وطير الماء والقُبَّرة والمُكَّاء والهدهد، واليَعْسوب، دون أن تتعدم في القصيدة الجاهلية مشاهد طيور أخرى.

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الحادرة الذبياني ٦٦ وبشر بن أبي خازم ١٤٦.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٦ وبشر بن أبي خازم ١٩٨ وعبيد بن الأبرص ٨١ (وصادر) ٨٩ والحادرة الذبياني ٦٦ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢٧٥ والأصمعيات ١٦٥ ق٨٥.

٤ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٤٤ وديوان قيس بن الخطيم ٢١٧.

٥ - الأصمعيات ٦٠ ق١٤.

٦ - الحديث مركز في (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١٥٥ و٢٥٠ و٢٦١ وتناول الزماح والعنقاء.

obeikandl.com

فالحَجَل ضَرْب من الطير جميل الشكل شبيه بالحمام أو القطا حجماً وطبعاً، أحمر المنقار والرجلين، يقع على الذَّكر والأنثى، وإن خُص به الذكر والأنثى حَجَلة والجمع حِجلى، ومن أسمائه اليَعْقُوب والقُبَّج ودجاج البر[1]. والحجل مشهود له بجمال الصوت والغيرة على أنثاه وقوة طيرانه[2].

ومن هنا فإن مشهد الحجل اقتطف من صورته غير ماصفة، وإن أطلق لفظه على صغار الإبل[3]. فالحجل مضرب المثل في الشباب وذهابه عند سلامة بن جندل[4]، وهو موئل طرفة لتحديد الأماكن التي يرتادها والوقت الذي يكثر فيه إمعاناً في التفرد والتميز، إذ يعبر عن نزعة التفاخر الحيوي المرتبط بالقدرة والشجاعة والجرأة.... فهو يرود أماكن ويصل إليها على حين يعجز غيره عن ذلك كله.

ولهذا يعيد إليه ذكريات أيامه الماضية مع خَوْلة، علماً أن النساء[5] استعارت بعض صفاته، فيقول طرفة[6]:

لِخَوْلَةَ بالأَجْزَاعِ مِنْ إِضَمٍ طَلَلْ وبالسَّفْحِ مِنْ قَوٍّ مُقَامٌ مُحْتَمَلْ[7]

تربَّعُهُ مِرْباعُهَا ومَصِيْفُهَا مِياهٌ مِنَ الأَشْرافِ يُرْمى بها الحَجَلْ[8]

أما الحِدَأُ فهو ضَرْب من الطير يصيد الجِرذان، وقيل: كان أصيد الجوارح، ويقع على الذكر والأنثى، ويقال للأنثى حِدَأة، ومن ألوانها السود والرُّمْد[9]. والحدأ من الجوارح التي شبهت بها الخيل المتجهة إلى المعارك دون أن تعرف التراجع[10].

---

١ - انظر اللسان (حجل) و(عقب) و(قبج) والحيوان ٢٠٢/٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢٢٧/١.

٢ - حياة الحيوان الكبرى ٢٢٧/١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٩٧ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٦٠ وشعر النابغة الجعدي ٤٩.

٤ - انظر ديوان سلامة بن جندل ٩١ وسمط اللآلي ٤٥٣/١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣٤٨.

٦ - ديوان طرفة بن العبد ٩٠.

٧ - الأجْزع: جمع جِزْع، وهو مُنْعَطف الوادي. وإِضَم: واد لأشجع وجهينة. والمحتمل. الارتحال.

٨ - تربعه: يقيم فيه زمن الربيع. والأشراف: أراد شَرَفاً وشُرَيفاً، وهما جبلان.

٩ - انظر اللسان (حدأ) والحيوان ٤٦٢/٣ و٤٦٣ وحياة الحيوان الكبرى ٢٢٩/١.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٥٦ وديوان الهذليين ٣٧/١.

openkandil.com

والرَّهْوُ أو الكُرْكِيُّ[1] ضَرْب من الطير عرف بحذره الشديد ونظام حراسته، واصطناع سلم اجتماعي رئاسي. وهو من بغاث الطير الجبان الذي يتخذ أبعد الأماكن عن الناس وأحرزها من الجوارح[2]. ولجبنه، فهو يتزود بالماء في استه عشرة أيام لأنه يخاف العطش، إذ ظن أن الطير ترد الماء خلال تلك المدة. ولا شيء أدل على هذا من قول طرفة بن العبد يهجو رجلاً غبياً[3]:

هُـمُ سَـوَّدُوا رَهْـواً تَـزَوَّدَ فِي اسْـتِهِ مِنَ المَاءِ خالَ الطَّيْرَ واردَةً عَشْرَا

وطرفة بن العبد أيضاً يستخدم الكروان في معرض تشبيه آخر. والكَرَوان طائر معروف بحسن الصوت، وجمعه كِرْوان، وعلى حسنه طاردته الصقور. وبذا جعله مثلاً للفخار، لأنه قسم الدهر شطرين: شطراً للكروان وكان نحساً، وهو يغمز من قناة عمرو بن هند بهذا، وشطراً لقوم طرفة فيقول[4]:

لنـــا يَـــوْمٌ وللكِـــرْوان يَـــوْمٌ تَطيْـــرُ البَائِـــساتُ ولا نَطِيْـــرُ

فأمَّـــا يـــومُهُنَّ فيـــومُ نَحْـــسٍ تطـــاردُهُنَّ بالحَـــدَبِ الـــصُّقُورُ[5]

وأمَّـــا يومُنـــا فنظَـــلُّ رَكْبـــاً وُقُوفـــاً مـــا نَحُـــلُّ ومَـــا نَـــسِيْرُ[6]

وبهذا وُظِّف المشهد لهجاء عمرو بن هند وهو الفكرة الأصلية في القصيدة، ويقابلها امتداح نفسه وقومه.

وأشارت القصيدة الجاهلية إلى طيور أخرى إشارات سريعة كالسَّمَام والخُفَّاش وطير الماء أو الغُرْنَيْق والقُبَّرة والمُكَّاء والهُدْهد وطائر اليَعْسوب. أما البَطُّ

---

١ - اللسان (رهو) وانظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ٢٠٤ والحيوان ٤١٩/٥.

٢ - انظر الحيوان ٢٥٤/٢ و٩/٧.

٣ - ديوان طرفة بن العبد ١١٧.

٤ - ديوان طرفة بن العبد ١٠٢- ١٠٣.

٥ - الحَدَب: ما ارتفع من الأرض وغلظ، ويوم الكروان يوم نحس لمطاردة الصقور لهن.

٦ - ما نحل وما نسير: نحن قيام على باب عمرو بن هند ننتظر الإذن، فلا هو يأذن فنحل عنده، ولا هو يأمر بالرجوع فنسير عنه (الديوان).

obeikandl.com

فنادر الذكر في القصيدة، وقد أشار إليه لبيد بن ربيعة حين شبه الأباريق به[1] وأي نوع من هذه الطيور لم يكن لينصَّب عليه المشهد؛ ـ وإن دخل في صميم حركية الصورة، وفكرتها، إذ وظِّف لإبراز معنى من المعاني ـ ولكنه مثل صورة الحياة الطبيعية والاجتماعية التي تتسرب إلى صميم الحياة الثقافية لتغدوجزءاً منها؛ ثم تغدو من معطيات الفن الشعري الجاهلي، وإن لم يأخذ حيّزاً كبيراً من حجم مشهد الطير..ولعل هذا كله يضفي عليه صفة التنوع والتعدد الملازم للطبيعة الحياة، كما يشي بنزعة الوجود المتغيرة والمتبدلة في الفن والحياة.

وهذا ما نجده في ضَرْبٍ آخر من الطير يقال له (السُمَانى)، والسُّمَانَى نوع من الطير ويطلق على المفرد والجمع، واحدته سُمَانَاةٌ[2]. وكان الشنفرى شبه نعله به[3].

ويقاربه في اللون والحجم طائر السَّلْوَى الذي ذكر لفظه في محكم التنزيل[4]. والسلوى يقع على المفرد والجمع وواحدته سَلْواة[5]. ويماثله السَّمَام وواحدته سَمَامة، وهو كسابقَيه دون القطا في الخِلْقة يميل لونه إلى البياض[6]. وشُبِّهت سرعة الخيل[7] وسرعة الإبل بسرعته[8]، وكأنه يباري الريح[9].

أما الخُفَّاش وجمعه الخفافيش فقد أخذ اسمه من ضعف بصره ولا يطير إلا قُبيل الليل[10]، ويطلب مساكن الناس وأحصنها[11]. وأشار إليه بشر بن أبي خازم في

---

١ - انظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٤٤ والمعاني الكبير ٤٤٩/١- ٥٥٠.

٢ - اللسان (سمن).

٣ - انظر ديوان الشنفرى (الطرائف الأدبية) ٣٥.

٤ - انظر سورة الأعراف ١٦٠/٧ وطه ٨٠/٢٠ وتفسير غريب القرآن٥٠.

٥ - انظر اللسان (سلو) والسلوى عند العرب العسل.

٦ - انظر اللسان (سمم).

٧ - انظر مثلاً: ديوان الأفوه الأودي ١٤ وعمرو بن كلثوم ٥٩٩ (كرنكو).

٨ - انظر مثلاً: ديوان عنترة بن شداد ٢٤٨.

٩ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٣٦.

١٠ - انظر اللسان (خفض) ومحاضرات الأدباء ٩٧٨/٤- ٩٧٩ والحيوان ٥٢٧/٣.

١١ - انظر الحيوان ٥٩٢/٣ و٦٦/٧.

openkandil.com

في بيت له مع طير الماء[1]. وهذا يطلق عليه الغُرْنَيْق والغُرْنُوق وجمعه الغَرانيق. وهو طير مثل الكَرَاكي، لونه أبيض، وقوائمه طويلة[2]. ويقوم على إحدى رجليه حذراً لئلا ينام[3]. وشبه أبو زيد الطائي أباريق الخمر بأعناقه، في قوله[4]:

وأَبَارِيْقَ شِبْهُ أعْنَاقِ طَيْرِ الْـ ـسمَاءِ جِيْبَ فَوقَهُنَّ خَنِيْفُ[5]

واللون الأبيض يذكرنا باللون الذي يميل إلى الحمرة وهو لون القُبَّرَة أو القُنْبَرة[6]. والقبرة ضَرْب من الطير صار مثلاً للأَمْن والطمأنينة[7]. بينما صارت القارِيَةُ وجمعها القواري مثلاً للغيث، وتيمن بها الأعراب وشُبِّه بها الرجل السخي. وهي طير أخضر الظهر قصير الأرجل طويل المنقار، ومنقاره أصفر[8]. ويُستَبشر به للمطر مثلما هو المكاء الذي ينتشي بالربيع[9]، وكأنه رسول للفرح والإنتاج. والمُكَّاء وأنثاه مُكَّاءة وجمعه المَكَاكي "طائر دقيق أبيض طويل الرجلين والعنق وساقاه بيضاوان كبياض جسده صغير المنقار، قصير الزَّمِكَّى. يكون في كل زمان، وله صفير حسن"[10] وهو "يألف الريف"[11].

---

١ - انظر ديوان بشر ٢٣٠ واللسان (شرف).

٢ - انظر اللسان (غرنق).

٣ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٧٨ ق٢٠ وديوان الهذليين ٣/٣٠.

٤ - شعر أبي زبيد ٦٤٨ وانظر محاضرات الأدباء ٤/٦٧٧.

٥ - الخَنِيف: ضَرْب من ثياب الكتان رديء.

٦ - انظر اللسان (قبر).

٧ - انظر ديوان طرفة بن العبد ١٥٧- ١٥٨ ومجمع الأمثال ١/٢٣٩ ونسب الشعر إلى كليب وائل، انظر أخبار المراقسة ٢٤٥ واللسان (قبر).

٨ - انظر المعاني الكبير ١/٤٢ والتاج واللسان (قري) وديوان دريد بن الصمة ٥٦.

٩ - انظر سمط اللآلي ٢/٦٦٤ وتفسير غريب القرآن ١٧٩ وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٥٣.

١٠ - المخصص لابن سيدة ٨/١٥٩ وانظر اللسان (مكا).

١١ - تهذيب اللغة ١٥/٣٩٨ "لام" – وانظر اللسان (مكا) والمخصص ٨/١٤٢.

obeikandl.com

وبهذا فطير المكاء نوع من القَنَابر يصعد في الجو ويهبط وقد يشاهد في البادية[1]. ومما يدل على ذلك أن طائر المكاء أخاف ناقة المتلمس فطارت حدة من صفيره[2]:

وتكادُ مِنْ جَزَعٍ يَطيرُ فؤادُهَا إنْ صَاحَ مُكَّاءُ الضُّحى مُتَنَكِّسُ[3]

أما الهُدهُد فإنه طير يشبه القطا وله قَنْزَعة، وجمعه الهُدَاهِدُ وهَدْهَدَتُهُ صوته[4]. واشتهر الهدهد بنتن رائحته[5]، ولكن بعض الشعراء سوغ له هذا بدفن أمه في قنزعته[6]، ويوضح ذلك ما وقع في شعر أمية بن أبي الصلت[7]:

غَيْمٌ وظَلْماءٌ وغَيْثُ سَحَابةٍ أَزْمَانَ كَفَّنَ واسْتَرادَ الهُدْهُدُ[8]

يَبْغي القَرار لأُمِّه ليُجِنَّها فَبَنَى عَلَيْها في قَفَاهُ يَمْهَدُ[9]

وإذا كان هذا المشهد صورة[10] للخرافات التي نسجت حوله فإن الشعراء أشاروا إليه في جوانب أخرى[11]، إذ جعله عبيد بن الأبرص واحداً من الطيور التي سكنت أطلال أحبته مع الحمام[12].

---

١ - انظر اللسان (مكا) وحياة الحيوان الكبرى ٣٢٨/٢ وانظر مثلاً: شرح لامية العرب ٢٨ وأعجب العجب في شرح لامية العرب ٢٠ و٥٥.

٢ - ديوان المتلمس ١٨٤.

٣ - متنكس: أي يطير في الجو ثم يهبط.

٤ - اللسان (هدد). وانظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١٤١ و ١٥٦.

٥ - انظر الحيوان ٥١٠/٣ ورسالة التربيع والتدوير ٣١ ومحاضرات الأدباء ٩٧٨/٤ ونهاية الأرب ٢٤٧/١٠ وحياة الحيوان الكبرى ٣٧٨/٢.

٦ - انظر تأويل مختلف الحديث ٥٨ و٢٦٤ وثمار القلوب ٤٨٧.

٧ - ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٥٥.

٨ - استراد: خرج يبحث عن الكلأ، وأراد خروجه باحثاً عن مكان صالح لدفن أمه.

٩ - يجنها: يدفنها بالجَنَن وهو القبر. والقفا: ما وراء العنق.

١٠ - انظر نهاية الأرب ٢٤٧/١٠ وحياة الحيوان الكبرى ٣٧٨/٢- ٣٧٩ والحاشية (٧) من الصفحة السابقة.

١١ - انظر مثلاً: ديوان ابن مقبل ٥٩.

١٢ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص (صادر) ٥٩.

obeikandl.com

ومن هنا ندرك أنَّ مشهد الهدهد كان أكثر تنوعاً في القصيدة الجاهلية من اليَعْسُوب. وهو مختلف في جنسه، فهو طائر أطول من الجرادة طويل الذنب لا يضم جناحيه إذا وقع، وجمعه اليَعَاسِيب[1]. وهو ذَكَر النَّحْل وغرة الفرس[2]، وهو اسم لفرس النبي صلى الله عليه وسلم[3].

وقد استفيد من ضمور هذا الطائر فشبهت به الخيل[4] وغيرها، كقول بشر بن أبي خازم يعرض لصفة الكلاب الضامرة التي فاجأت الثور صباحاً[5]:

وبـاكَرَهُ عنْـدَ الـشُّرُوقِ مُكَلِّـبٌ أَزَلُّ كـسِرْحانِ القَـصِيْمَةِ أَغْبَـرُ[6]

أَبُـو صِبْيَةٍ شُعْثٍ تُطيفُ بشَخْصِهِ كَـوَالِحُ أَمْثَـالُ اليَعَاسِـيبِ ضُـمَّرُ[7]

وبهذا المشهد تنتهي مشاهد الطير، وكلها تدل على أنها كانت في القصيدة إيضاحاً لصفة من الصفات المعنوية أو الحسية في البشر والحيوان، وأثبتت أنها لمع وإشارات قوّت المعاني التي وقف عندها الشعراء.

ولعل ذلك كله خلق الاستجابة تلو الاستجابة، وحث الفكر على التخييل لما يؤديه المشهد على قصره، لأنه ما قصد إليه قصداً من جهة ولم يتخصص بمشهد منفصل من جهة ثانية، وإنما جاء على سجية الشعراء ليكون مَثَلاً أو عِبْرة.

---

١ - اللسان والتاج (عسب).

٢ - انظر القاموس المحيط والتاج واللسان (عسب).

٣ - أنساب الخيل (ابن الكلبي) ١٩- ٢٠ وحلية الفرسان ١٥١ وأسماء خيل العرب وأنسابها (للغندجاني) ٢٧٢ والحلبة في أسماء الخيل (للتاجي) ٧١ وحياة الحيوان الكبرى ٤١١/٢ والقاموس المحيط (عسب).

٤ - راجع ما تقدم ١٤٢ وانظر الأغاني ٧٩/١٥ وحياة الحيوان الكبرى ٤١١/٢.

٥ - ديوان بشر بن أبي خازم ٨٤.

٦ - الأزَلُّ: السريع الخفيف. والسِّرْحان: الذئب. والقَصِيمة: ما سهل من الأرض وكثر شجرهُ.

٧ - الكوالح أي عوابس، من الكلوح، وهو تكشر في عُبُوس. وذكر غير ما مصدر أن التشبيه للخيل في صفة الضمور، انظر اللسان (عسب) وحياة الحيوان الكبرى ٤١١/٢.

obeikandl.com

ومن هنا يمكن أن يكون مشهد الشاء قادراً على إيصال جملة من المعاني المجردة والمجازية قد يعجز غيره عن ذلك، ولا سيما الشاء التي كثر ذكرها في القصيدة حتى غدت كأنها واحدة من أصولها الفنية.

obeikandl.com

القسم الثاني: مشهد الشاء

قد يحمل بعضنا فكرة قاسية عن الحيوان وتدبير شؤونه كما سَخّر الله له ذلك، وقد يُحطم أحد ما عملية التوازن بيديه لجهل بها، أو لسبب ما، على الرغم من أن الله هدانا إلى فكرة تسخير أنواع مختلفة من الحيوان لحاجاتنا وراحتنا كالأغنام والمعز. ولكن الطمع يغري النفس البشرية فيجعلها تشرع بالاعتداء على الحيوانات البرية ولا سيما الجميلة منها، وهي التي آثرت الحرية والمتعة كالمها والظباء والوعول.

وبذلك فقد تتعرض الحياة البرية لإخلال عملية التوازن فوق ما تعانية من زحف الصحراء. ولو تأملنا الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة لثبت أن ما نقوم به لا يغترب عن مسرح الجريمة. فمتعة الصيد لدينا صارت تدميراً لأحد رموز الخير والازدهار، ومبعث الأمل والرجاء في جنبات الصحراء.

فمشهد الشاء يؤكد وظيفة اجتماعية من خلال الصورة الشعرية التي رسمها المبدعون للضأن والمعز والمها والظباء والوعول، كما يؤكد وظيفة فنية من خلال التشبيهات مع الأحبة ما يجعل المبدع يمرّ بفكرة ما يضعها بين يدي المتلقي بأسلوب مجازي، ومن ثم فهو لايصدمه بها بأسلوب تقريري مباشر. وبهذا تغدو الصورة موّارة فوّارة، وهي تستولد صوراً جديدة في صميم تنسيق بديع للألفاظ التي تتآلف حتى تنشق عن مشهد مراوغ يتصف بكل ملامح الجمال والبهاء، في الوقت الذي ينتصر للتعبير عن وظائف عدة للعصر الذي ينتمي إليه، وهذه هي صفة الفن العظيم. وبهذا فالمبدع يدعو إلى مبدأ استمرار الحياة ودفعها نحو الأفضل، ويثبت احترام الجاهليين للحياة من أجل الحياة ومن هنا سيجلو مشهد الشاء كثيراً من ذلك.

١- مشهد الضأن والمَعز

هذا المشهد قليل الذكر في القصيدة الجاهلية، ويقوم على الأبيات المفردة غالباً، على الرغم من أن الضأن والمعز معدودة في المال[١]، كما أنها دفعت دية للقتلى[٢]، وقدمت قرابين للأصنام[٣]. ولعل في شدة القرب حجاباً عن وصفها الوصف المباشر والحسي لأن المشاهد الشعرية عرضت لها في سياق مجازي يتركز في صفة الذل والتخاذل حتى ضُرب بها المثل في الضعف والهوان فقيل: أذل من النَّقْد أو البَذْخ[٤]. وقد قيل: إن صفاتها تلك انتقلت إلى أصحابها حتى نُعتوا بالسكينة والجبن[٥]. وبقي الكبش والمعز أوفر حظاً من إناث الضأن على فضل الأخيرة بلبنها وصوفها. ومن أمثلة ذلك قول خِدَاش بن زهير[٦]:

أَغَـرَّكَ أَنْ كانـت لأَهْلِـكَ صُـبَّةٌ ... نَما الكَبْشُ فيها صُوْفُهُ ورَخائِلُـهْ[٧]

أَبَحْنـا لـهُ مـا بـينَ بُـسٍّ ورَهْـوةٍ ... مَشَى الكَبْشُ مُعْبَـرَّاً بـه ورَوَاغِلُـهْ[٨]

وتظهر من خلال هذا المشهد منافع الضأن بجلاء[٩] في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وعلى الرغم من إدراك الجاهليين لهذا فقد يُسَيِّبونها إذا هدد الخطر

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ٣٦ ق٥ ب١٢.

٢ - انظر مثلاً: شعر خداش بن زهير ٩٩.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢١٧ و٢١٩.

٤ - انظر مجمع الأمثال ٢٨٤/١ و٢٨٥ وجمهرة الأمثال ٤٦٩/١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٢ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٣٠ وراجع ما تقدم من البحث ١٢٦ وانظر محاضرات الأدباء ٦٥٢/٤.

٦ - شعر خداش بن زهير ٩٠.

٧ - الصبة: القطعة من المعزى. ونما الكبش: نما صوفه. والرخائل: الإناث من أولاد الضأن، ومفردها رِخْل، والذكر منها حَمَل.

٨ - بُسٌّ ورَهْوة: موضعان. ومشى الكبش: كثُر نتاجه. والكبش المُعْبَرُّ: الذي ترك سنتين أو ثلاثاً لا يجز صوفه. والرَّواغل: أراد الغنم التي تأكل الرَّغْل، أي النبات.

٩ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ٢٣٧ والنابغة الذبياني ١٧١.

obeikandl.com

الأنفس[1]، بينما كان طبع بعضهم منافياً لألفة للغنم والمعز فأبى أن يكون راعياً لها ولو أيقن بنفعها. فامرؤ القيس قدّم مشهداً طريفاً للمعزى في أثناء الحلب، وصوّر بغامَها كأنه صوت نَعِيّ أتى قومه فهبوا يضجون، ويبكون، فيقول[2]:

أَلاَ إِنْ لاَ تكُــــنْ إِبــــلٌ فمِعْــــزَىً كــــأَنَّ قُــــرونَ جِلَّتِهــــا العِــــصِيُّ
إذا مُــــشَّتْ حَوالِبُهــــا أَرَنَّــــتْ كــــأَنَّ الحَــــيَّ صَــــبَّحَهُمْ نَعِــــيُّ[3]
فتُوسِــــعُ أَهْلَهــــا أَقِطــــاً وسَــــمْناً وحَــــسْبُكَ مِــــنْ غِنــــىً شِــــبَعٌ وِرِيُّ[4]

فهذا المشهد يفيض بالروح الإنسانية والواقعية، ويثبت دون ريب منافع كثيرة للضأن والمَعَز. ومن هنا نجد من افتخر بنتاجها[5] كموسى بن عيسى القشيري، وقل لقشيري أن يفتخر إلا بالإبل[6]. وصارت كثرة المعزى في الحجاز ملاذ تشبيه للخيل عند بعض الشعراء[7]، وعتاق الخيل معزها أما براذينها فهي الضأن[8].

وكان التيس ملاذَ بشْر لهجاء الفرسان الفارين من المعركة[9]. وذم بعض العرب العنز[10]، ويعدُّ عروة بن الورد متفرداً في هذا الباب. فقد أظهر براعة في السخرية من اقتناء المعز، فحينما يجيئه ضيْف ويسعى إلى بُرْك وابنتها دَرْعة لم تكونا لتشياه على حسن صنيعه بهما. فهما أشبه بصاحبين له أتاهما يطلب رفدهما فلم

---

١ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٨٩ و٢٩٣.

٢ - ديوان امرئ القيس ١٣٦- ١٣٧ والبيت الأول والثالث في الحيوان ٤٩٥/٥ وجمهرة الأمثال ٣٧٩/١، وسمط اللآلي ٨٥/١ على اختلاف الرواية.

٣ - مُشَّت: مسحت بالكف لتدر اللبن. وأرنت: صاحت، ويستعمل الإرنان في البكاء.

٤ - الأقِط: شيء يصنع من اللبن المخيض على هيئة الجبن. والمعنى: ينبغي على الإنسان ألا يقنع بالقليل، وعليه طلب الرفعة وشرف المنزلة.

٥ - انظر مثلاً: شعر خداش بن زهير العامري ٩٧ والمفضليات ٣٦ ق٥.

٦ - انظر شعراء بني قشير ٩٨/١.

٧ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٠٨.

٨ - انظر الحيوان ١٥٢/١ ومحاضرات الأدباء ٦٦٠/٤.

٩ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧١.

١٠ - انظر محاضرات الأدباء ٦٦١/٤.

obeikandi.com

رفدهما فلم يعطياه شيئاً فقال[1]:

أَأيَّ النَّـــاسِ آمَـــنُ بعْـــدَ بَلْـــجٍ وقُـــرَّةَ صَـــاحِبَيَّ بـــذِي طِـــلالِ[2]

أَلَمـــا أغْـــزَرَتْ فِي العُـــسِّ بُـــرْكٌ ودَرْعَـــةٌ بنتُهَـــا نـــسيَا فعـــالي؟[3]

سمِـنَّ عَلَـى الرَّبيـع فهُـنَّ ضُـبْطٌ لهُـنَّ لَبالِـبٌ تحْـتَ الـسِّخَالِ[4]

ويسعى المرء خلف مشاهد متكاملة في الشعر الجاهلي فيراها عزيزة وإذا وجدت فهي مقطعة في أحسن الأحوال، ولكن الصور المتناثرة في شذرات من الأبيات عوّضتها عن تلك، وفيها عُرضت صورة المرأة ممثلة بالنّعجة أو الشاة[5]، كما أشبهت الثُّلّة جماعة النّساء[6]. وصار الكبش يطلق غالباً على السَّيّد من القوم فقيل: فلان كبش من الكباش، ولعله صار رمزاً للرئاسة وقيادة الجيش[7]. فهو يتلقى الضربات بمقدم رأسه حتى أصبح الدم سبائب في وجهه كقول الأخنس بن شهاب[8]:

هـمُ يَـضْربون الكَبْشَ يَبْـرُقُ بَيْـضُهُ علـى وَجْهـهِ مـنَ الـدِّماءِ سَـبَائِبُ

فالكبش لا يرتد لجموحه ولو نَهِل الرُّمْح من دمه[9]، وقد يصبح قرنه المكسور

---

١ - ديوان عروة بن الورد (صادر) ٥٩.

٢ - بَلْج وقُرَّة: صاحبا عروة. وذو طِلال: موضع ماء.

٣ - بُرْك ودَرْعة: اسم العنزتين. والعُسّ: القَدح الكبير.

٤ - الضُّبْط: الأقوياء. ولَبالب: حنين. والسِّخال: ولد المَعز، والأنثى سَخْلة، وعَنَاق والذَّكَر جَدْي، فإذا أَجْذع سمي عَرِيْضاً وعَتُوداً.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عنترة بن شداد ٢١٣- ٢١٤ والأعشى ٦٣.

٦ - انظر مثلاً: ديوان تأبط شراً ١٧٣ و٢٠٠.

٧ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٠٢- ١٠٣ وعامر بن الطفيل ١١٠ وقيس بن الخطيم ١٧٧ ودريد بن الصمة ٤٢- ٤٣ و٨٠ والخنساء ٥٤ والأعشى ٢٨٣ و٣٦٣ وشرح ديوان لبيد ١٣٣ والمفضليات ٣٢١ ق٩١ ومحاضرات الأدباء ٦٦١/٤ وقصائد جاهلية نادرة ١١١.

٨ - المفضليات ٢٠٧ ق٤١ وانظر مثلاً: ديوان طرفة ١٩٥ والنابغة الذبياني ٨٥ و١٧١. وقصائد جاهلية نادرة ٢٠٣.

٩ - انظر مثلاً: ديوان المزرد ٣٥.

obeikandl.com

مضرب المثل للأخوين اللذين فرق بينهما الموت[1]، وربما فقد الكبش قرنيه معاً لكثرة ما قارع الكباش من الأعداء[2].

وما حجبت صفات القوة في الكبش بعض مثالبه، ولا سيما حين يتأخر عن القطيع لأمر من الأمور. واستمد قسم من الشعراء هذه الصور لهجاء رؤساء القوم الذين يتخلفون عن مقدمة الجيش[3].ولكن المثالب متركزة في الإناث، وهي التي تهب مذعورة من ذئبٍ عادٍ، وبدلاً من أن تفر بذمائها تشرع تنظر إليه وهو يقصم رقاب من طالتها أنيابُه. ولعل هذه الصورة البديعة للضأن تفضح غريزتها البائسة وإن كانت غريزتها هي التي جعلتها تخدع المرء حين يراها تفتش عن مواطن الراحة وقت تبيت[4]. ويتخذ المشهد هذه الصورة لإظهار صورة الفرس الممثل بالذئب، وهو يبطش بالأعداء.

ولا نعدم وجود صور أخرى لمشهد الضأن والمعز وهي التي تساق إلى الذبح دون أن تعصي أمراً، وكأن الشفرة لا تفارق رقبتها[5]. ولعل هذه الصورة تذكر المرء بقصة كبش عمرو بن هند الذي سمّنه زماناً وسرّحه بعد أن علّق في عنقه شفرة وزناداً لينظر من يجترئ عليه، وكأنه يعني الاجتراء على عمرو نفسه. وكان الشاعر عِلْبَاء بن أَرْقَم قد تجاسر وقتل الكبش، ثم أتاه فمدحه بشعر استوهبه نفسه فعفا عنه.

وأشار علباء إلى هذه[6] المسألة كما اتخذها خِدَاش بن زهير مثلاً لنفسه في شعره حين قال[7]:

كَمْ مُبْغضٍ لي لا يَنالُ عَدَاوَتي كالكَبْشِ يَحْمِلُ شَفْرَةً وزنادَا

---

١ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٥٤ و١٥٦.

٢ - انظر مثلاً: الأنوار ومحاسن الأشعار ٢٤٥/١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٨٧.

٤ - انظر نهاية الأرب ٣٢٩/٩ وانظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧١ وامرئ القيس ٧٦ وطفيل الغنوي ٩٠ وعامر بن الطفيل ٥٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان قيس بن الخطيم ٦.

٦ - انظر الأصمعيات ١٨٥ ق٥٦ وشعر خداش بن زهير ١٩.

٧ - شعر خداش بن زهير ٦٤.

obeikandl.com

وبذلك كله يؤسس مشهد الضأن والمَعَز في الشعر الجاهلي جملة من الصفات التي استخدمت في الهجاء خاصة، وكأن صفة المهانة التصقت بها. فالفُرْس أعداء بني ذُهْل يشبهون الغَنم[1] ذِلَّة، بينما يشبه أعداء الأعشى الوَذَح الذي علق بصوفها وجَفَّ فيقول[2]:

وتَــرَى الأَعْــدَاءَ حَــوْلي شُــزَّرَاً خَاضِعِي الأَعْنَاقِ أَمْثَالَ الوَذَحْ[3]

فهذا المشهد يحمل قاذع الهجاء إلا أن مهجو خِدَاش بن زهير أكثر ذلة، لأن العَنَاق الصغير وهو ولد المعز يبول على أنفه[4].

ويبقى مشهد الضأن في شعر طرفة بن العبد متميزاً في هذا الاتجاه، اذا اتخذ الشاة الرَّغُوث وسيلة إلى هجاء عمرو بن هند. وقد تمنى لو ملك القوم هذه الشاة وحلت مكانه لكان أفضل لهم، لأنها ستدر عليهم لبناً، فيقول[5]:

فليْـتَ لنَـا مكَـانَ المَلْـكِ عَمْـروٍ رَغُوثــاً حَــوْلَ قُبَّتِنَــا تَخُــوْرُ[6]

مِــنَ الزَّمِــراتِ أَسْــبَلَ قَادِماهَــا وضَــــرَّتُها مُركَنَّــــةٌ دَرُورُ[7]

يُــشَارِكُنا لنَــا رَخِــلانِ فِيْهَــا وتعلُوهَــا الكِبَــاشُ فَمــا تَنُــورُ[8]

لعَمْــرُكَ إِنَّ قَــابُوسَ بْــنَ هِنْــدٍ لَــيَخْلِطُ مُلْكَــهُ نُــوْكٌ كَثِيْــرُ[9]

ولو أعاد المرء النظر في المشهد لانتهى إلى جملة من الصفات الحسية في عرض مجازي معبر، فعمرو بن هند لا يستحق مدح طرفة مهما يَخِف الناس منه. ولهذا

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٣٩.

٢ - ديوان الأعشى ٢٨١.

٣ - الشُّزَّرُ: جمع شازر، وهو الذي ينظر بمؤخرة عينه. والوذح: ما يَعْلق من أبعار الغنم بالصوف.

٤ - انظر شعر خداش بن زهير ٨٨.

٥ - ديوان طرفة بن العبد ١٠١- ١٠٢ والشعر في الحيوان ٤٩٦/٥.

٦ - الرغوث: النعجة المرضع. وتخور: تُصوِّت، وأصل الخُوار للبقر وجعله للنعجة، والبيت مخروم في الديوان (ليت).

٧ - الزمرات: أراد القليلات الصوف. والقادمان: الخُلْقان، وهما للناقة واستعارهما للشاة. والضَّرَّة: لحم الضرع. والمُركَّنَة: المجتمعة.

٨ - الرِّخْلاَنُ: ومثله رَخِلان جمع رَخِل، وهو الأنثى من ولد الضأن. وتنور: تنفر.

٩ - قابوس: أخو عمرو بن هند. والنُّوك: الحمق.

كان مشهد الضأن ملاذه لابراز ضآلة عمرو في نظره، وسَعة حمقه في تصريف أمور الناس. فالمشهد يتفجر بمعان تعبيرية نفسية وفكرية، ولهذا بقي من المشاهد[1] النادرة حجماً في الشعر الجاهلي للضأن والمعز.

وهكذا أثبت مشهد الضأن والمعز في الشعر الجاهلي قيماً تعبيرية حيكت في الهجاء[2] على الرغم من أن هذه االحيوانات معدودة في المال. كما أكد أنها قليلة الذكر فيما لو قيست بمشاهد الشاء الأخرى كالمها والظباء والوعول، وإن كانت أوفر حظاً في أشعار الإسلاميين[3]. وأيا كان استحضار مشهد الشاء في سياق بنية الوحدة الفنية للقصيدة من جهة وفي سياق الدلالة الشاملة لهذه الوحدة من جهة أخرى فإن الدلالات الفكرية والاجتماعية تأخذ اتجاهاً أفقياً في توليد المعاني التي تتجه إلى بؤرة معنوية أكبر،وهي تتضافر مع وحدات أخرى لتجسد الوحدة الكبرى. ويبدو لي أن هذه البؤرة تتركز في القيم الاجتماعية التي تواضع عليها المجتمع؛ وهي قيم تبرز فهم الشعراء للحياة، وتعبّر عنها وعن تجربتهم ومواقفهم. ومن ثم فإن مشروعية مشهد الشاء تتمثل ـ غالباً ـ تتجلى في كونه غدا حاملاً اجتماعياً يمتلئ بالحيوية والجاذبية، ولا سيما حين تعرض هذه القيم لاجتماعية في صميم غرض الهجاء والفخر...

ولعل ذلك يقودنا إلى الحديث عن مشهد الظباء.

---

١ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١١٢ وقيس بن الخطيم ٦١ وسمط اللآلي ٢/٨٣٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الهذليين ٢/٣٢.

٣ - انظر مثلاً: المفضليات ١٦٨ ق٣٣ ومحاضرات الأدباء ٤/٦٦١، وسمط اللآلي ٢/٧٧٥- ٧٧٦ و٧٩٨.

obeikandl.com

٢- مشهد الظباء

الظباء لفظ يطلق على الغزلان[١]، كما يقع على المها[٢]، مثلما يطلق المها على البقر الوحشي[٣]، ويسمى البقر الوحشي العِيْن لسَعة عينيها الدعجاوين، والنِّعاج[٤] كذلك.

والطَّلاَ من أولاد الغزلان[٥] والمها من حين يولد إلى أن يتشدد ثم خِشْف للظباء[٦] وجُؤذُر للمها[٧] والبقر الوحشي.

والمها أبيض اللون عامة على حين أن الغزلان ثلاثة أنواع تبعاً لألوانها، وهي أولاً الآرام ومفردها رِئْم وريم[٨]، لونها أبيض وتسكن الرمال غَالباً، وثانياً الأُدْمُ ومفردها أَدْمَاء[٩] ليست خالصة البياض، وتسكن الجبال عادة، وثالثاً العُفْر[١٠] ومفردها عَفْراء ولونها كلون التراب وهي تسكن الصحارى كالمها.

---

١ - اللسان والتاج (ظبي).

٢ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٤١ ق٥٥ وهذا المعنى لم تتعرض له الهجمات.

٣ - انظر اللسان (مها) وانظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٥٣ و(صادر) ٦٥ والنابغة الذبياني ١١٩.

٤ - اللسان (نعج) و(عين) وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٠ وبشر بن أبي خازم ١٩٣ والنابغة الذبياني ٧٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٦٧.

٥ - انظر اللسان (طلا) وانظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ١٠.

٦ - انظر اللسان (خشف) وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٧٢.

٧ - انظر اللسان (جذر) وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٠ و١٦٨ وبشر بن أبي خازم ١١٩ و١٥٣ وعامر بن الطفيل ١٠٦ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٧ و١٤٠ و٢٦٩ والمفضليات ٣٧٣.

٨ - انظر اللسان (عفر) وانظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٦٨ وأوس بن حجر ١٣ و٥٧ وعبيد بن الأبرص ٤٠ و(صادر) ٥ والأعشى ٣٨٩ و٣٩٣ وقيس بن الخطيم ١٤٠ وشعر خداش بن زهير ٧٨ وخفاف بن ندبة ٤٥٤ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٦٧.

٩ - انظر اللسان (أدم) وانظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٢ وبشر بن أبي خازم ١٤٣ وعبيد بن الأبرص ٤٣ و(صادر) ٥٨ وطفيل الغنوي ٨٤ وعلقمة الفحل ٨٤ والأعشى ٣٤٩ وشعر خداش بن زهير ٧٧ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٠ و٢٤٥ و ٢٦٩ وشعراء بني قشير ٢٢٢/٢ وقصائد جاهلية نادرة ١٦٣.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٩٩ وعبيد بن الأبرص ٢٢ والأعشى ١٠٣ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢٤٠ وخداش بن زهير ٧٧ وقصائد جاهلية نادرة ٢٠١ واللسان (عفَر).

obeikandl.com

ويطلق على صغار الظباء رَشَأ[1]، وشَادِن[2]، وقد تسمى الأنثى بالعَنْز والذَّكَر بالغزال[3].

ومشهد الظباء غني بهذه التسميات، فضلاً عن أنه يعرض لهذه الحيوانات الجميلة في ضروب مثيرة من الصور الفنية والفكرية والثقافية والاجتماعية... فهو يمثل جذور الحياة عند الجاهليين، ويقف من الموت موقف المتأمل، ويغير نظرة العبث التي تصيب الأطلال[4]، ويتحدى فكرة الدهر المسلطة على المخلوقات. ولهذا يعمد إلى مفارقة فنية قائمة على مفارقة الحياة نفسها، ليخلع حالة من حالات الفرح والسعادة بدلاً من الرهبة والسكون في الأطلال. ولعل هذا كله يحمل إعادة لذكريات الماضي وإصراراً على استمرار الحياة ولا سيما حين يركز صفة التوالد في الحيوان، ويبرز صورة المها والظباء في صورة الأحبة. وهذا التجسيد يعلن صورة الموازنة الحسية في شكل الأنثى الطاغي، وينتقل بين النظائر من الظباء إلى المرأة ثم إلى رضابها والخمرة والدمى. وقد تعود الموازنة من الأفكار المجردة إلى الصور المادية في مختلف شؤون الحياة سلماً وحرباً وفي مشاهد الصيد خاصة.

وقبل إيضاح ما تقدم لا بد من الإشارة إلى أن هذه الحيوانات آثرت سكن الصحراء، إذ يصادفها المسافرون على رواحلهم[5] وهي تطأطئ بقرونها لتنال شيئاً من الظل في حر الهاجرة، وقد تحفر حفرة في أصل شجرة لتستكنَّ فيها[6]، وغالباً تعيش مدة طويلة دون ماء لأنها تتغذى ليلاً بالنبات[7].

ولعل هذا وطَّن الجاهليين على السفر في جوف الصحراء في الليل والاهتداء

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٣٧ وبشر بن أبي خازم ١٤٣ وطرفة بن العبد ٥٢ وعلقمة الفحل ٥٦.

٢ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ١٠٠ وعلقمة الفحل ١٠٥ و١٢٧ وطرفة بن العبد ٨ وسلامة بن جندل ١٧١ والنابغة الذبياني ٩١ والمزرد ٢٣ و٥٧ وشعر زهير بن أبي سلمى ٦٤ وخداش بن زهير ٧٨ وخفاف بن ندبة ٤٥٨.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٩٠.

٤ - انظر حديث الأربعاء ٨٣/١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٤٧ و١١٧ والأعشى ١٠٣ وشعر النابغة الجعدي٥ والمفضليات ١٤٢ ق٢٦.

٦ - انظر مثلاً: المفضليات ١٣٢ ق٢٥.

٧ - انظر المنازل والديار ٧ وانظر مثلاً: شعر خِدَاش بن زهير ٧٧.

obeikandl.com

بقطعان المها والغزلان على قدم المساواة مع الاهتداء بالنجوم.

وتقود هذه الأصول إلى بيان ما لها وما عليها في الشعر الجاهلي، فمشاهد الظباء تستأنس بالأطلال وتعرض لمشاهد الوحش عامة[1]، وقد تسميه[2]، أو تجعل المها[3] وحدها، أو ترافقها صغارها[4]. والتقليد الفني مع الغزلان مشابه لما تقدم[5] فقد تكون منفردة، أو مع صغارها، وتظهر في الطرقات تمد أعناقها الجميلة فيبدو التشابه[6] بينهما. ولكن المذهب الفني المعروف أن تذكر المها والغزلان وصغارهما في الأطلال الدارسة، وتتداخل صفاتهما كتداخل هذه الحياة، فالخنس مثلاً صفة لهما معاً[7]. ويعد أوس بن حجر واحداً ممن رسم[8] هذا النهج الفني في مشاهد الظباء والأطلال، فيقول[9]:

كَأَنَّ جَدِيْدَ الدَّارِ يُبْلِيْكَ عنهُمُ ... تَقِيُّ اليَمِيْنِ بَعْدَ عَهْدِكَ حَالِفُ

بِهَا العِيْنُ والآرامُ تَرْعَى سِخَالُهَا ... فَطِيمٌ ودَانٍ للفِطَامِ ونَاصِفُ[10]

فمشهد الظباء والأطلال غني بالمعاني وقد تلون بعواطف الشعراء، لأنهم عمدوا إلى فكرة التعويض مما حرمتهم منه الحياة، وجعلوا حيوان الوحش صرخة متمردة

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١١٢ و(صادر) ١١٧.

٢ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٩٢ و١٠٦ وصادر (١٠٠ و١١٣) وديوان امرئ القيس ١١٤. والنابغة الذبياني ١٤٢ ودريد بن الصمة ١٠٠ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٠ و٢٦٩ و٢٩٨- ٢٩٩.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٣٠ و١٣٨ وسلامة بن جندل ١٤٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٢١ والمفضليات ٢٢٩ ق٤٩.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٥٢- ٥٣ و(صادر) ٦٥- ٦٦ وبشر بن أبي خازم ١٥٣ و١٩٣ والمفضليات ٢٣١ ق٥٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٨ وعبيد بن الأبرص ٢٢ والنابغة الذبياني ١٣٧- ١٣٨.

٦ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١١٦.

٧ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٧٥- ٧٦ والمفضليات ٢٤١ ق٥٥.

٨ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٤ وبشر بن أبي خازم ١٠٩ وعبيد بن الأبرص ١٢٢ وشعر زهير ١٠ و٢٧٢ وشرح ديوان لبيد ٢٩ و٢٩٩ و٣٢٧ و٣٥٥ والمفضليات ١٣٢ ق٢٥ و٤١٢ ق١٢٤.

٩ - ديوان أوس بن حجر ٦٣.

١٠ - السِّخال: جمع سَخْلة وهو ولد الظبي وشِبْهُهُ. والناصف: الذي بين الفطام والدنو منه.

openkanar.com

في وجه الفناء. وبهذا قضوا على فكرة العبث التي تغزو حياتهم وأطلالهم، وما اجتماع النقيضين إلا اجتماع واقعي، فالطلل يذكِّر بالموت، والحيوان يذكِّر بآمال الحياة. واستمر هذا الفهم في صدر الإسلام بشكل ما[1].

ولعل ذلك يؤكد أن صورة النساء والظباء سيطرت على عقل الجاهلي،ومن ثم مثَّل لها مشهد الظباء والمها أجمل الصور الحسية في حركاتها وسكناتها. فكلما مَرَّ بأطلاله الدارسة تذكر محبوبته، وانثنى يسرد صفاتها التي انقلبت إلى ظبية أو مهاة مكحولة العَيْن[2]، ترشقه بنظراتها دون أن يدري[3]. وقد تكون منفردة كالغزال المفصُول عن أمه، وهذا أتم لحسنه، وحين تنظر إليه تبدو العين مطروفة[4]. وهي جميلة العنق يزينه اعتدال وبهاء من غير حَلْي[5]، وإذا زين بالعقود ازداد حسناً[6].

أما قَدُّها فرشيق، فهي هضيم الكَشْح[7]، كاعب الصدر[8]، رخْصة الأطراف[9]، ريَّا المِعْصم والمُخَلْخَل[10]. ومن ثم فإن مشهد الظباء يعد مجالاً رحباً للجمال ومقاييسه عند العرب، إذ يستوفي ملامحه وعناصره الكبرى، في الوقت

---

١ - انظر مثلاً: ديوان ابن مقبل ١٤٧ والمفضليات ١١٤ ق٢١ وانظر حديث للأربعاء ١/١٢٢ وما بعدها.

٢ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٢٣ وديوان امرئ القيس ٢٤١ وطفيل الغنوي ٧٥ والحادرة الذبياني ٤٦ وعبيد بن الأبرص ٥٢-٥٣ و٦٨ والنابغة الذبياني ٩١ والأعشى ١١٣ و٣١١ و٣٢١ والمزرد ٢٣ وشعر عمرو بن شأس ٦٣.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١١٩ وسلامة بن جندل ١٥٦ وطرفة ٥٢ و١١٩ وعامر بن الطفيل ١٠٦ والنابغة الذبياني ٩١ والأعشى ٢٤٧ وشرح ديوان لبيد ٢٤٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ١٩٥ و٢٧٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان الحادرة الذبياني ٤٥ والنابغة الذبياني ٢٢ وشعر عمرو بن شأس ٦٣ وديوان عنترة ٢١٤.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٨ وطرفة ٨ والنابغة الذبياني ٩١ و١٣١ والأعشى ٣٢٣ وقيس بن الخطيم ١٢٥.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٩٧ وبشر بن أبي خازم ١٧٨ وعبيد بن الأبرص ١١٠ وطرفة ٥٢ و١١٤ والنابغة الذبياني ٢٢ والأعشى ١٨٩ و٢٤٥ والأصمعيات ١٥٧ ق٥٥.

٨ - انظر مثلاً: ديوان اوس بن حجر ١١ والنابغة الذبياني ١٣٩.

٩ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٤٧ و٣١١ و٣٩٣ وشرح ديوان لبيد ٢٤٦.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٥ وديوان بشر بن أبي خازم ٧٨.

obeikandl.com

الذي يشي بحب الحياة والرد على مفاهيم الموت والفناء. فأنى تلفت المرء في الشعر الجاهلي لاح لعينيه مشهد الظباء، وهو يشفّ عن روح الحيوية والشباب ؛ إذ يتنسَّم الحركة الدائبة، والصور المثيرة، ورائحة العطر التي تزكم الأنوف..ثم هو مشهد يلبي الرغبات المضمرة للشعراء، بمثل ما يعبر عن طبيعة الأسماء التي كان الجاهليون يتعلّقون بها، ولاسيما حين يصر الشعراء على تحديد أسماء محبوباتهم وتشبيهها بنوع من الظباء... وإذا كانت الصور المادية قد غلبت على تشبيهاتهم واستعاراتهم فإن المرء لا يعدم عدداً من الصور المعنوية المثيرة.

ومن ثم فالفتنة جامعة بينهما ولا سيما الحسن في الصحة والعنق والعين ورشاقة القد، وبهاء اللون[1]. ومن أبرز المشاهد التي تمثل ذلك قول طفيل الغنوي[2]:

دِيَارٌ لِسُعْدى إِذْ سُعَادُ جِدَايَةٌ مِنَ الأُدْمِ خُمْصَانُ الحَشَاغَيْرُ خَنْثَلِ[3]

هِجَانُ البَيَاضِ أُشْرِبَتْ لَوْنَ صُفْرَةٍ عَقِيلَةُ جَوٍّ عَازِبٍ لَمْ يُحَلَّلِ[4]

فالمشهد يوظف الكلمة التعبيرية لتدل على صفة ما جرى، وينتقل من صفة الظباء إلى صفة المرأة في تداخل فني وجمالي رائق، فالنضارة مستمدة من التشبيه القائم بينهما، ولو كانت المرأة مكبلة بالحديد كما يقول النابغة[5]:

أو حُرَّةٍ كَمَهَاةِ الرَّمْلِ قد كُبِلَتْ فَوْقَ المعَاصِمِ منها والعَرَاقِيبِ[6]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٨٧ وعبيد بن الأبرص ٦٨ و١٠٧ وعروة بن الورد (صادر) ٤٣ وسلامة بن جندل ٢٢٧ وطرفة بن العبد ٥٢ والأعشى ١٨٩ و٣٢١ و٣٨٩ و٤٠١ وشعر زهير ١٢٥- ١٢٦ وعمرو بن شأس ٣٦ وديوان النابغة الذبياني ١٣٩ والمفضليات ٣٧٣ وقصائد جاهلية نادرة ٢١٧.

٢ - ديوان طفيل الغنوي ٨٤.

٣ - الخَنْثَل من الإنسان: ما بين السُّرَّة والعانة، و هي العظيمة البطن، ولكنه أراد أنها غير واسعة البطن. والحسا: البطن.

٤ - هجان البياض: كريمة البياض. وجوّ: البطن من الأرض، وهو موضع أيضاً.

٥ - ديوان النابغة الذبياني ٥٢.

٦ - حُرَّة: أي امرأة كريمة النَّسَب. والمعاصم: جمع مِعْصَم، وهو مَشّد السِّوار من الذراع.

obeikandl.com

وغلب على المشهد الصفات التي تفيض بروح الفتنة والجمال وانتقل إلى المطابقة التامة بين الظباء والنساء في كثير من الصفات[1] ولا سيما صفة العنق التي أخذت لُبَّ الشعراء أياً كان موقع المشهد في بداية القصيدة أو وسطها أو آخلاها، علماً أن المشهد المطوَّل غالباً ما يرد في معرض القسم الغزلي المتفرع من المقدمة الطلية أو مقدمة الظعائن، علماً أنه يرد قصيراً في سياق فني ومعنوي متعدد والدلالة سواء أكان ذلك في ردّهم على الموت باستيلاد الحياة؛ أم في تمسكهم بلحظات الحيوية والعطاء والجمال والماضي العامر بالذكريات الجميلة التي ترد على حاضر بائس،وهو ما حرص الدارسون على إبرازه أينما لاح لهم....

و قد آثر الشعراء تصوير الظبية المطفل التي تخلفت عن أترابها لتتناول أطراف البرير فمدت عنقها متطاولة إليه فبدت محاسنها غاية في العجب[2]، كقول علقمة الفحل[3]:

كأنَّ ابنةَ الزَّيدِيِّ يومَ لَقيتُها هُنَيدةَ مَكحولُ المدامعِ مُرْشِقُ

تُراعِي خَذولاً ينفُضُ المَرْدَ شادِناً تَنوشُ من الضَّال القِذَافَ وتَعلقُ[4]

وهم حين يفعلون ذلك يجعلون المشهد أكثر جاذبية؛ إذ يتوخون أغراضاً معنوية ونفسية؛ فعلى الرغم من الطفل يشغل الأم عن كل شيء فإنه لم يستطع أن يشغلها عن الرجل الذي أصباها...ومن ثم كانت الفتنة صارخة حين بدت محاسنها بكل وضوح، وحين طفقت تنظر إليه نظرة عجلى وخجولة، وهي أشد لحسنها. فالشعراء يركزون عيونهم في ذلك كله فيثبتون ((صدَّ المحبوبة وهجرها، أو بعدها وانفصالها، وما يخلفه الهَجْر والمطل والفراق من تعلق شديد، وشوق مستبد، ودموع

---

١ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ١٠٥ وعنترة ٢٢٦ وطرفة بن العبد ٢٠ و٥٠ والحادرة الذبياني ١٢٧ والأعشى ٣١١ و٣٩٧ والنابغة الذبياني ٢٢ وقصائد جاهلية نادرة ١١٦.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٨ وطرفة بن العبد ٨- ٩ و١١٩ والأعشى ٢٤٥- ٢٤٧ و٣٦٩ و٣٧٣ و٣٩٧ و٤٠٣ والنابغة الذبياني ١٣٩ و١٤٣ وشعر خداش بن زهير ٧٧.

٣ - ديوان علقمة الفحل ١٢٧ ونسب الشعر إلى عبدة بن الطبيب، انظر شعر عبدة ٢٥ بن الطبيب ق٥.

٤ - تراعي: تراقب وتحفظ. والخذول: ولد الظبية، والمرد: ثمر الأراك. والقذاف: ما استطاعت تناوله.

obeikandl.com

عزار يسكبها الشاعر حسرة وألماً ولهفة. وسرعان ما تفد على خاطره أيامه الماضية السعيدة وذكرياته الحلوة الجميلة، حين كان يلتقي بمحبوته ويبوح كل منهما لصاحبه بحبه ويبادله إعجاباً بإعجاب، وشوقاً بشوق، حتى إذا ما انتهى من ذلك مضى يصف محاسنها ومفاتن جسدها))[1]

وقد يجعلون المحبوبة في الهوادج[2] فتمد عنقها كعنق ظبية لطيف مَدَّته لتناول أوراق الضَّال وهذا إمعان من الشعراء لإبراز جمال العنق، كقول المثقب العبدي[3]:

وهُـنَّ عَلـى الرَّجـائِزِ واكِنـاتٌ قَوَاتِـلُ كـلَّ أَشْـجَعَ مُـسْتَكينِ[4]

كَغِـزْلانٍ خَـذَلنَ بـذَاتِ ضَـالٍ تَنُـوشُ الـدَّانِياتِ مِـنَ الغُـصُونِ[5]

ولو أعدنا النظر إلى المشهد فإننا نجده يجتاز الصفات الحسية ليكسبها الصفة الإنسانية، فيمتلئ المشهد بدفء عاطفي كبير، ويصبح الود أعظم حين تحدب الظباء على أطلائها[6]. وبهذا يتميز الشعراء الكبار كامرئ القيس الذي يطيل لحظات الجمال وهو يخلق الموقف النفسي الذي يمحو به ما يقع من المحبوبة من صَدٍّ وهجران، كقوله[7]:

تَـصُدُّ وتُبْـدِي عـن أَسِـيلٍ وتَتَّقِـي بنَـاظرةٍ مِـنْ وَحْـشِ وَجْـرَةَ مُطْفِـلِ

---

١ - انظر مقدمة القصيدة العربية ١٣٠

٢ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٣٨ وديوان امرئ القيس ١٦٨ وبشر بن أبي خازم ١١٩ وعبيد بن الأبرص ١٢٨ والنابغة الذبياني ٢٠٤ والأعشى ٣١١ و٣٤٩ و٣٥٩ وشعر عمرو بن شأس ٩٣ وقصائد جاهلية نادرة١٨١.

٣ - المفضليات ٢٨٨ وشرح المفضليات ١٠١٩/٢.

٤ - الرجائز: مراكب النساء. وواكنات: مطمئنات. والأشجع: الطويل.

٥ - خَذَلن: تخلّفن عن صواحبهن. والضَّالُّ: السِّدْر البري. وتنوش: تتناول.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٣٨ وعمرو بن قميئة ق١٠ و٣٢ وعبيد بن الأبرص ٥٢- ٥٣ وقيس بن الخطيم ٢١٢- ٢١٣ والأعشى ١٨٩ وشعر زهير بن أبي سلمى ٦٤ و٢٢٩ وديوان النابغة الذبياني ١٣١ والمفضليات ٣٧٣ وقصائد جاهلية نادرة ١٤٩- ١٥٠.

٧ - ديوان امرئ القيس ١٦.

openkandil.com

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّئْمِ ليْسَ بفاحِشٍ إذا هيَ نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ

فمشهد الظباء يمثل العاطفة في لحظتي الجد واللهو والفرح والقلق الوجودي[1]. ولهذا اختير من الصفات ما يحمل في النفس القضاء على الحزن والسأم. وقد تكون ظباء وجرة أوفر حظاً من بقية[2] الأماكن التي عرض لها الشعراء في مشهد الظباء.

وإذا كنت غير معني بتحليل مكانة مشهد الظباء وموضعه من القصيدة الجاهلية، ولاسيما في المقدمات الفنية؛ ـ وهو ماعني به بعض الدارسين [3] ـ فإني معني بالحقول الدلالية التي يمثلها هذا المشهد، ومعرفة سياقاته الفنية الكبرى ومن ثم فالأعشى طالما قلَّد عنق محبوبته بالجواهر ليقارب[4] جماله جمال عنق تلك الظبية من ظباء وجرة، كقوله[5]:

ظَبْيَةٌ مِنْ ظِبَاءِ وَجْرَةَ أَدْمَا تَسَفُّ الكبَاثَ تَحْتَ الهَدَالِ[6]

حُرَّةٌ طَفْلَةُ الأَنامِلِ تَرْتَبْ بُّ سُخَاماً تكُفُّهُ بخِلالِ[7]

وكَأَنَّ السُّمُوطَ عَكَّفَهَا السِّلْ كُ بِعِطْفَيْ جَيْدَاءَ أُمِّ غَزَالِ

فهذه المشاهد على اختلاف طبيعتها الفنية تؤدي إلى السبب الجوهري الكامن وراءها، وهي تنتقل من عالم مادي إلى عالم روحي يفيض بالمشاعر الإنسانية ولا

---

١ - انظر شعراء بني قشير ٢/٢٢٢.

٢ - انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ٧٥- ٧٨.

٣ - هناك كتب عدة تعرضت لذلك، انظر مثلاً (مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي) للدكتور حسين عطوان .

٤ - انظر ديوان الأعشى ٣٢١- ٣٢٣ و٣٧٥ و٣٨٩.

٥ - ديوان الأعشى ٣٩- ٤١.

٦ - الأُدْم: ظباء طويلة الأعنق سمر الظهور. والكَبَاثُ: ثمر الأراك، والأراك: شجر تستعمل غصونه في تنظيف الأسنان بعد دق طرفها. والهَدَال: ما تهدل من الغصون واسترسل.

٧ - طَفْلة: لينة ناعمة. وتَرْتَبُّ: من رَبَّ الشيء، إذا نماه. والسُّخام: الشعر اللين. وتَكُفُّه: تجمعه وتضمه. والخِلال: المشط.

سيما حين تثبت صفة التعلق واللهو. فالظباء كالنساء تتعلق بالذكور[1]، ويلهون معاً، كقول أوس بن حجر[2]:

وَقَدْ لَهَوْتُ بمِثْلِ الرِّئْمِ آنسةٍ تُصْبِي الحَلِيمَ عَرُوبٍ غيرِ مِكْلاحِ[3]

كأَنَّ رِيْقَتَها بعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ مِن ماءِ أصْهَبَ في الحانوتِ نَضَّاحِ[4]

وقد يمتد اللهو حتى الصباح كقول ثعلبة بن صُعَير[5]:

وَلَرُبَّ واضِحَةِ الجبينِ غَرِيْرَةٍ مِثْلِ المَهَاةِ تَرُوقُ عينَ النَّاظِرِ

قد بِتُّ أُلْعِبُهَا وأَقْصُرُ هَمَّها حتَّى بَدَا وَضَحُ الصَّبَاحِ الجاشِرِ[6]

فالظباء والنساء من أطيب المخلوقات أجساداً وأكثرها جمالاً، ونفوراً[7]، وقد يدل نفورها على الأعداء[8] مثلما يدل مشهد الظباء على الجمال، وقد ترق فلا يفرق بين صورة الظبية والمرأة في مخيّلة الشاعر[9] كقول عروة بن الورد[10]:

فَراشِي فِراشُ الضَّيْفِ والبَيْتُ بَيْتُهُ ولمْ يُلهِنِي عَنْهُ غزالٌ مُقنَّعُ

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٨ و٣٠ و٢٣٠ و٢٥٥ و٢٩٧- ٢٩٨ و٣٢٣ وبشر بن أبي خازم ٦٣- ٦٤ و٢٠٢ والأعشى ١٧٥ و١٨٥ و١٨٩- ١٩١ و٢٠٧ و٣٤٩ و٣٥٩ و٣٩٣ وشعر النابغة الجعدي ٤ ومجمع الأمثال ١/٣٥٤ و٣٥٦.

٢ - ديوان أوس بن حجر ١٣- ١٤.

٣ - الأنسة: الفتاة الطيبة النفس. والعَرُوب: المُتَحَبِّبَة إلى زوجها. ومِكْلاح: عابسة.

٤ - الرِّيْقَة: الرُّضاب وماء الفم. والأصْهب: صفة في الخمرة المعتقة، ولونها أقرب إلى السواد. والحانوت: دكان الخمَّار. والنَّضَّاح: الراشح، أو الذي يروي الشَّرْب.

٥ - المفضليات ١٣١.

٦ - أُلعِبُها: أحملها على اللعب. والجاشر: من الجشر، وهو تباشير الصباح.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٩٠ و٢٤١ وطفيل الغنوي ١٠٧-١٠٨ والنابغة الذبياني ٢١٤.

٨ - انظر الحيوان ٤/٤٢٣ وعيون الأحبار ٤/٧٨ والعقد الفريد ٧/٢٣٣.

٩ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٣- ١٤٤ وعلقمة الفحل ٨٤ و١٠٥.

١٠ - ديوان عروة بن الورد (صادر) ٤٩.

obeikandl.com

فالمشهد يشرق بالمتعة الفنية مثلما يكون رداً على قسوة البادية وحياتها. ولهذا يصرخ امرؤ القيس بأعلى صوته طالباً من الآخرين التمتع من النشوات والنساء الحسان[1]:

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فإنَّكَ فَانِ مِنَ النَّشَوَاتِ والنِّسَاءِ الحِسَانِ

مِنَ البِيْضِ كالآرامِ والأُدْمِ كالدُّمَى حَواصِنُهَا والمُبْرِقَاتِ الرَّوانِي[2]

فعلى قَدْر ما يعلن المشهد تحديه للفناء من خلال الإقبال على اللهو، على قدر ما يوضح صورة المتعة المرتبطة بشكل من الأشكال بالنساء والخمر والظباء كالدمى[3] والهبات[4].

وهي صورة تؤصّل لصلة القربى الجمالية التي خلقها الله بين النساء والظباء وبين ما توحيه من لهو وعبث فيقبل المرء على رضاب المرأة فيحس لذة الخمر، ويرى الظبية فيرى صورة الشبيه بشراً أو تمثالاً.

ولا شك فقد لمحنا أطرافاً من ذلك في المشاهد السابقة، ولكن عبيد بن الأبرص يظهر وداً عظيماً نحو الظباء اللواتي أشبهت أباريق الفضة المملوءة بالخمر[5] وهي تحنو على أطفالها[6]:

وَظِبَاءٍ كَأَنَّهُنَّ أبَارِيـ ـقُ لُجَيْنٍ تَحْنُو عَلَى الأَطْفَالِ

فمشهد الظباء يحكي طيب الأجساد، ويدل على عبق الرائحة عند الظباء لأنها تتناول أزكى الحشائش. ومن هنا راق للشعراء تشبيه الخمرة المعتقة بدم

---

١ - ديوان امرئ القيس ٨٧ ـ ٨٨ وانظر فيه أيضاً ١١٠ و٢٣٠.

٢ - الحواصن: العفائف. والمبرقات: اللواتي يُبْرِزْنَ حليهن ومحاسنهن للرجال. والرواني: دائمات النظر.

٣ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٨٤ وديوان بشر بن أبي خازم ١٥٥ و١٦٧ وعبيد بن الأبرص ٤٢ و١٤٤ والأعشى ١٧٥ و١٩٩ و٢٤٥ و٢٥٣ و٢٨١ وعنترة ٣٣٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٥٧ و١٣٥ و٣٧٥.

٥ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٧٠ وسلامة بن جندل ١٥٨- ١٥٩ والحادرة الذبياني ٤٧ و٥٦ وانظر نقد الشعراء (قدامة بن جعفر) ٢٦- ٢٧.

٦ - ديوان عبيد بن الأبرص ١٠٦.

obeikandi.com

الذبيح[1]، كقول الحادرة الذبياني[2]:

بَكَـرُوا عَلَـيَّ بِـسُحْرَةٍ فَـصَبَحْتُهُم مِـنْ عـاتقٍ كـدَمِ الـذَّبيحِ مُشَعْـشَعِ

ويبدو أن القرائن انتقلت واقعياً وفنياً من الصفة الحسية في المرأة وفي الخمر إلى الصفة المعنوية[3]، لأنهما تبعثان الدفء في النفس البشرية. ويجمع بين هذه جميعاً النشوة التي تلذذ بها الجاهلي، وذاق شَهْدَها[4]. فالمرء يلهو، وللشباب لَذَاذة مُزجت بماءِ غوادٍ من خمرٍ ذي نَطَفٍ أغنَّ مُنَطَّقٍ[5]. ومن أمثلة ذلك قول عبيد بن الأبرص[6]:

وَقَـدْ تَبَطَّنْـتُ مِثْـلَ الـرِّئْمِ آنـسَةً رُوْدَ الـشَّبَابِ كَعَابـاً ذَاتَ أَوْضَـاحِ[7]

تُـدْفِي الـضَّجيعَ إذا يَـشْتُو وتُخْـصِرُهُ في الـصَّيْفِ حِيْنَ يَطِيبُ البَرْدُ للصَّاحِي

تَخَـالُ رِيْـقَ ثَنَاياهـا إذا ابتَـسَمَتْ كَمِـزْجِ شُـهْدٍ بـأُتْرُجٍّ وَتُفَّـاحِ

ومشهد الظبية اللعوب التي اختلطت صفاتها بالمرأة حتى انتقل الوهم إلى شجرة كرم اختلفت عناقيدها في شعر ربيعة بن مقروم يتقدم إلينا فيقول[8]:

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٥ وعبيد بن الأبرص ١٢٨ وشعر عمرو بن شأس ٦٩ و٩٨ والمفضليات ٢٤٢ وديوان الهذليين ١/٤٠.

٢ - ديوان الحادرة الذبياني ٥٧.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٤١- ٢٤٢ وعروة بن الورد (صادر) ٣٢ والنابغة الذبياني ١٣١- ١٣٢ والأعشى ٤١ و٥٢ و٦٣ و٧١ و٨١- ٨٣ و٩١- ٩٣ و١٩٢ و١٦٥ و٣٢٩ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢١٤ والمصون في الأدب ١٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١١٥ و١٥٦- ١٥٨ وأوس بن حجر ١٤ و١٣٧ وبشر بن أبي خازم ٦٥ و١٤٣- ١٤٤ و٢٠٢ وشعر زهير ٦٤ والمفضليات ٦١ق١١ و٢٤٨ ق٥٧ و٤١٣ ق١٢٤.

٥ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ١٤٤- ١٤٥ والمفضليات ٢١٨ ق٤٤.

٦ - ديوان عبيد بن الأبرص ٤٠ وانظر فيه أيضاً ١١٠- ١١١ و١٣٥.

٧ - تبطن المرأة: ضَجَعها. والآنسة: الطّيبة النفس. والرُّوْد: الشابة الحسناء. والأوضاح: الحَلْي من الفضة.

٨ - شعر ربيعة بن مقروم ٢٥٧.

obeikandi.com

كأَنَّهـا ظَبْيَـةٌ بِكْـرٌ أَطَـاعَ لهـا مِـنْ حَوْمَـلٍ تَلَعَـاتُ الجَـوِّ أَوْ أُوْدَا[1]

قامَتْ تُرِيكَ غداةَ البَيْنِ مُنْسَدِلاً تخالُـهُ فَـوْقَ مَتْنَيْهَـا العَنَاقِيْـدَا[2]

وبـارِداً طَيِّبـاً عَـذْباً مُقَبَّلُـهُ مُخَيِّفَـاً نَبْتُـهُ بـالظَّلْمِ مَـشْهُودا[3]

فالمشهد يُفْصح عن تداخل الصفات بين المرأة والظبية وينتقل إلى نظير آخر وهو شجرة الكرمة التي اشتبكت عناقيدها وتدلَّت مثل شعر كثيف مختلف، وكذلك امترج رضابها بشهد طيب بارد.

وهذا المشهد واحد من مشاهد الظباء في الشعر الجاهلي الذي عمد إلى تشبيه المرأة بالشجرة[4]، علماً أن المرأة تقاسمت صفة الضمور مع الظبية والفرس وكذلك الحذر والنفور والاقتدار[5]، دون أن تنعدم مشاهد للظباء والخيل خلَت من ذكر المرأة ولا سيما إذا أريدت صفة السرعة[6]، أو تشبيه سنابك الخيل بقرون الظباء[7].

وبهذا كله تأكد لنا أن مشهد الظباء والمرأة يكاد ينحصر في باب النَّسيب والغزل فقلَّما وقع في معرض آخر كالهجاء والرثاء. ولكن الحادرة الذبياني يهجو زَبَّان بن سَيَّار عن طريق امرأته التي سَبَت الحادرة وتمتع بها، كما في قوله[8]:

ذكَـرْتُ اليَـوْمَ دارَاً هَيَّجَتْنِـي لِزَبَّـانَ بـن سَـيَّارِ بـنِ عَمْـرِو

---

١ - أطاع لها: إثر المرتع واتسع. وحومل وجَوَّ وأُوْد: مواضع. وتَلَعات: جمع تَلْعة، وهي ما ارتفع من الأرض، (وهي من الأضداد) انظر ثلاثة كتب في الأضداد ١٠٩ (كتاب السجستاني).

٢ - مُنْسَدِلاً: يريد شعرها المسترسل.

٣ - البارد: الثغر، وكلما كان بارداً كان أطيب لرائحته. والظَّلْم: ماء الأسنان. والمُخَيّف: المخلل.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٦ وبشر بن أبي خازم ٧ وطرفة بن العبد ١٩٦ وطفيل الغنوي ٨٢ والنابغة الذبياني ٩٦ والحيوان ٧٣/٥ وانظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ٨٨٧ و ما بعدها.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١ و٨٧ و٩٢ و١٦٧ والمفضليات ٢٤٣ ق٥٥ و٢٩٧ ق٧٩.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٩٠ وسلامة بن جندل ١٧١ وعبيد بن الأبرص ٣٢ و١٠٩- ١١٠ ودريد بن الصمة ٧٧ وعامر بن الطفيل ٤٠ والأصمعيات ٦٩ ق١٦ والمفضليات ٢٨٢ ق٧٤.

٧ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٧٥.

٨ - ديوان الحادرة الذبياني ٩٨.

obeikandl.com

لَيـــالِيَ تَـــسْتَبِيْكَ بجِيْـــدِ رِئْـــمٍ ومَفْلُـــوقٍ عَليـــهِ الفَـــرْمُ يَجْـــري[1]

وهذا المشهد ينقلنا إلى مشهد السبايا اللواتي أشبهن الظباء النوافر والخواذل[2]، كقول الحاجز الأسدي[3]:

وأَعْـــرَضَ جَامِـــلٌ عَكَـــرٌ وسَـــبْيٌ كغِـــزْلانِ الـــصَّرَايمِ مِـــنْ بَحـــارِ[4]

وإذا كان المشهد السابق يفتخر بسبي النساء فإن سلامة بن جندل يصور رجال الأعداء بالظباء النوافر، كناية عن الجبن والخوف في قوله[5]:

كـأَنَّهُمُ كـانُوا ظِبـاءً بصَفْـصَفٍ أَفَـاءَتْ علـيهم غَبْيَـةٌ ذَاتُ مَـصْدَقِ[6]

وهذا المشهد يستفيد من صفة الخوف عند الظباء ويسقطها على الرجال، وليس من عادة الشعراء أن يصفوا الرجل بالرئم[7] أوالمهاة.

وبذلك كله صارت صورة الظباء وأسماؤها جزءاً من معالم[8] المرأة في الرثاء والأحزان. وكان الجاهليون يفتخرون بنتائج معاركهم وقد تركوا نساء القوم يبكون كالظباء[9]، كقول لبيد بن ربيعة[10]:

---

١ - المفلوق: عنى به التمتع بالمرأة. والفَرْمُ: ما تِشُدُّ به المرأة فَرْجها من خِرَق.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ١٢٥ والنابغة الذبياني ٥٢ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٤١/١ و٢٤٥.

٣ - قصائد جاهلية نادرة ٧٨.

٤ - الجامل: القطيع من الإبل مع أصحابه. والعَكَرُ: القطيع الضخم من الإبل. والصَّرَايم: الرمال، واحدتها صَريمة، وهي ما انصرم من معظم الرمل. وبَحار: موضع بعينه، ويروى بكسر الباء وبضمها، انظر معجم البلدان (بحار).

٥ - ديوان سلامة بن جندل ١٦٩.

٦ - الصَّفْصَف: ما استوى من الأرض ولا رمل فيه. وأفاءت: رجعت. والغَبْيَةُ: الدَّفْعة من المطر. والمَصْدَقُ: الشَّدَّة.

٧ - انظر مثلاً: ديوان عنترة بن شداد ٢٦٧ والمفضليات ٤١٧ ق١٢٤ ب٣٨.

٨ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٣٤- ٣٥.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٣٢ و(صادر) ٤٨ والخنساء ١٢٣ وشرح أشعار الهذليين ١٢١٨/٣.

١٠ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٦٢.

obeikandl.com

الباعِـــثُ النَّـــوْحَ في مآتِمِـــهِ مِثْـلَ الظِّبـاءِ الأَبكـارِ بـالجَرَدِ[1]

فالظباء مشهود لها بالعطف والحَدْب على طلائها، وهذه تخور مستدرة المودة من الأُمَّات، وكأن الجميع في حالة من النواح. ولم يكن لبيد وحيداً في اقتطاف ثمار هذه الصفة الطبيعية، بل إن الجاهليين استفادوا منها في صيد الظباء. وكانوا يدخلون كناسها ويعركون آذان الطلاء حتى إذا ما استدرت عطف الأُمَّات صادوها. ويدل على هذا قول أبي ذؤيب في رسوله إلى أم عمرو[2]:

لَعَلَّـكَ إِمَّـا أُمُّ عَمْـرٍو تَبَـدَّلَتْ سِواكَ خَلِيلاً شاتِمِي تَسْتَحِيْرُهَا[3]

وهذا يدخلنا في مشاهد صيد الظباء، إذ كان للعرب طرائق في ذلك كما اتضح، فمنها ما قام على الخبرة بطباع هذا الحيوان الجميل، ومنها ما قام على المهارة والحذق، فاختاروا المكان والزمان الموافق لصيد الظباء والمها.

فأبو ذؤيب الهذلي نفسه ساقه القدر إلى قلب أم الرهين كما ساق الظبي إلى شبكة حيكت من الحبال القوية، و قد أخفق إذ حاول الفرار[4]:

وأَعْلَـــمُ أَنِّـــي وأُمَّ الرَّهِيـــ ـنِ كالظَّبْيِ سِيقَ لحَبْلِ الشَّعَرْ

فَبَيْنَـــا يُـــسَلِّمُ رَجْـــعَ اليَدَيْـ ـــنِ بـــاءَ بكفَّـــةِ حَبْـــلٍ مُمَـــرْ[5]

فـــراغَ وقـــد نَـــشِبَتْ في الزِّمـــا عِ فاسْـتَحْكَمَتْ مِثْـلَ عَقْـدِ الـوَتَرْ[6]

---

١ - المآتم: الجماعة في الحزن. والجَرَدُ: الأرض المستوية.

٢ - ديوان الهذليين ١/١٥٧.

٣ - تستحيرها: تستعطفها.

٤ - ديوان الهذليين ١/١٤٧.

٥ - يسلم رجع اليدين: يطأ وطأ سليماً. وباءَ: رَجَع.و مُمَرٌّ: شديد الفتل.

٦ - راغ: جال. والزِّماع: جمع زَمَعَة، وهي لَحْمة زائدة خلف الظِّلْف، وهي الشَّعَرات المجتمعة فيه كالزيتونة.

obeikandl.com

فالمشهد السابق يعرض للشبكات التي نُصبت للحيوان[1]، بينما يعرض الأعشى لمشهد طريف يذكر فيه قناصاً راود الظباء بنار الصيد[2] ليذهب ببصرها كما يراود رجل امرأة، فيقول[3]:

تَقَمَّرَهـا شَـيْخٌ عِـشَاءً فَأَصْـبَحَتْ قُـضَاعِيَّةً تَـأتِي الكَـوَاهِنَ نَاشِـصَا[4]

وهذه المشاهد تثبت أن الخيل لم تكن أداة وحيدة في صيد الظباء[5]، فقد عرف غير ما طريقة في هذا الباب[6]، كالحفائر[7]، والتطريب.

وهذه الطريقة اشتهرت في صيد الوَعْل لأنه يرتاح إلى الغناء، ولا ينام ما دام يسمع ذلك[8].

هكذا انتهى المشهد إلى المتعة النفسية والفكرية التي يوفرها، وكأنه يمثل نسيم الصبا الذي يخفف قَرَّ الشتاء، مثلما يلطف حَرَّ الهاجرة. فمشهد الظباء تسربل بالمشاعر الإنسانية والأخيلة الفنية المبدعة، وتراجعت للمرة الأولى صورة الخيل والإبل لصالح الإنسان عامة والمرأة خاصة ولا سيما حين أُعيد تشكيل الحياة في الأطلال الدارسة. فالمذهب الفني لمشهد الظباء والمها قام على التوازن النفسي بين ما بُني عليه وبين ما يبتغيه الشعراء. لهذا أرسوا التفاؤل في النفوس لأنهم يحبون الحياة، فلم يجعلوا هذا المشهد مجرد تمسك بذكريات الماضي مع

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٤٦.

٢ - انظر المصايد والمطارد ١٩٧ ونهاية الأرب ٣٣٣/٩ و٣٤٠ وخزانة الأدب ٢١٢/٣.

٣ - ديوان الأعشى ١٨٥ وانظر مثلاً آخر: ديوان عدي بن زيد ١٠٠ ق٢٢.

٤ - تقمر الظباء: تصيَّدها في القمراء، وتقمر المرأة: تزوجها. وقُضاعية: نُسبت إلى رجل من قبيلة قُضَاعة. ونشصت المرأة: كرهت صحبة الرجل وملته.

٥ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٥٣ والمفضليات ٢٥٦ وراجع ما تقدم ١٧٤.

٦ - انظر البيان والتبيين: ٦٤/٣ والمخصص ٢٠/٦ ونهاية الأرب ٢٨٦/٦ و٢٩٩ وراجع ما تقدم ١٧٤- ١٨٠ وسمط اللآلي ٨٠٧/٢.

٧ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٧٠ والأعشى ١٤١ وعيون الأخبار ٧١/٢ والمعاني الكبير ٧٨٥/٢ والمصايد والمطارد ١٠٥.

٨ - انظر نهاية الأرب ٣٢٥/٩.

الأحبة وإنما اتجهوا إلى إثبات فكرة المستقبل الأرحب الذي يتم بفكرة التوالد من جهة وبإشراك عدد من حيوان الوحش في أطلالهم من جهة أخرى.

ولعل ذلك كله يقطع بأن النظائر المقدسة[1] ضَرْب من الوهم في هذا المشهد على الرغم من أن الظباء دخلت في عادات العرب[2] ومعتقداتهم، فهم لم يتعرضوا لها قرب مكة المكرمة على أنه تعظيم لها وإنما هو تعظيم للكعبة[3].

وأيا كانت عظمة الحقول الدلالية وأبعادها الإنسانية والنفسية فإن منهج البحث يفرض علينا إشارة سريعة إلى حجم مشهد الظباء، فهو يطول ليستوفي عدداً من الصفات الحسية والمعنوية في مقدمات القصائد، ولاسيما الغزلية...

ولو وازنه بأي مشهد آخر ـ عدا مشهد الخيل والناقة والحمر الوحشية والبقر الوحشي ـ لتبين له ذلك...

وقد عرض الدكتور حسين عطوان في كتابه المعروف (مقدمة القصيدة العربية) عدداً غير قليل من القضايا الفنية والفكرية والنفسية في صميم بحثه للمقدمات، ما يجعلنا نحيل إليه، ونكتفي به.

وقد يضعنا ذلك الحديث في أعتاب مشهد الوعول التي ضربت مثلاً لقوة الدهر وسطوته، وامتناعها عليه.

---

١ - راجع كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٢٤٤ وما بعدها، ففيه بيان تلك المسألة.

٢ - انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١٥٤ و ما بعدها.

٣ - انظر الحيوان ١٩٣/٣ وثمار القلوب ٤٠٨.

obeikandl.com

٣- مشهد الوعل

الوَعِلْ[١] اسم جامع لأنواع الوعول كالأَعْصَم[٢]، والصَّدَع[٣]، والأَيِّل[٤]، والأُرْوِيّ[٥]. وجَمْع (وعل) وُعول وأوعال والأنثى وَعْلة، ويظل اسم الأَرْوَى أكثر شهرة وهو اسم للجمع واحدته الأُرْوِيّة كما يقال للأنثى عَنْز[٦].

ويبدو أن تعدد أسماء الوعل، مثل تيس الجبل يرجع إلى الاختلاف الطفيف في صفاته. فالأعصم ـ وجمعه العُصْم ـ ما كانت إحدى قوائمه بيضاء، ويمثل هذا قول النابغة الذبياني في وصفه لصاحبته[٧]:

وإنْ ضَحِكَتْ لِلْعُصْمِ ظَلَّتْ رَوَانِيَاً إليْهَا وإنْ تَبْسَمْ إلى المُزْنِ تَبْرُقِ[٨]

فالعين تتركز في تسمية الوعل، وهي تسمية ترينا صوراً فكرية غنية بالإيحاء، لارتباط صفة الاسم بدلائله، وهو ما يعرف اليوم بسيميائية العنوان أو اللفظ؛ وهو يعبر عن ملامح الذاكرة الجمعية الجاهلية التي ارتبطت بصفة من الصفات. فعقول الجاهليين تسمرت عند صفة امتناع الوعول في الجبال والمعاقل الحصينة، وضربتها مثلاً للقوة وطول العمر والوقوف في وجه الدهر. فهذه الصفات ذات مدلول واقعي ونفسي وفكري في مشهد الوعول، لهذا تنوعت المسارب الفنية في ذكرها، وإن بقيت في إطار المَنَعة. فالأَعْصَم قد يكون من الاعتصام في رؤوس

---

١ - انظر اللسان والتاج والقاموس المحيط (وعل) ومعجم مقاييس اللغة ١٢٥/٥.

٢ - انظر اللسان والتاج والقاموس المحيط (عصم) ومعجم مقاييس اللغة ٣٣٢/٤- ٣٣٣.

٣ - اللسان (صدع) وانظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣١.

٤ - اللسان (أيل) وانظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٧٠ وشعر النابغة الجعدي ١٨٩ وقصائد جاهلية نادرة ٧٩.

٥ - اللسان (روي). وتسمت النساء باسم أروى، انظر مثلاً: قصائد جاهلية نادرة ٧٩.

٦ - اللسان (عنز) و(روي) وانظر معجم مقاييس اللغة ١٥٥/٤.

٧ - ديوان النابغة الذبياني ١٨١ وت.د (شكري فيصل) ١٨٤.

٨ - رنا إلى الشيء: أدام النظر إليه. والعُصْم: الوعول التي في إحدى قوائمها بياض، وسائر ذلك أسود أو أحمر، انظر اللسان والقاموس المحيط (عصم) ومعجم مقاييس اللغة ٣٣٢/٤.

obeikandl.com

الجبال وتَوقُّلِه فيها كالصَّدَع[1]. فإذا وصف قوم بالشدة والمنعة تقدم مشهد الأوعال ليضفي على هذه الصفات قدرة وثباتاً، كقول امرئ القيس يمدح بني ثُعَل بحماية الجار، وكانت إبله ممنوعة عندهم إذ لعبت أولادها مع أولاد الوعول فيقول[2]:

تَبيـــتُ لَبُـــوْني بالقُرَيَّـــةِ أُمَّنَـــاً وأَسْـرَحُها غِبَّـاً بأَكْنَـافِ حَائِـلِ[3]
بَنُـــو ثُعَـــل جيرَانُهـــا وحُماتُهَـــا وتُمنَـــعُ مِـــنْ رُمـــاةِ سَـعْدٍ وَنائِـلِ[4]
تُلاعِـــبُ أَولادَ الوُعُـــولِ رِباعُهَـــا دُوَيْـنَ السَّمَاءَ فِـيْ رُؤُوسِ المَجَادِلِ[5]

فامرؤ القيس يصف إبله في منعة وأمن حتى يخيل للمرء أنها سكنت في جبال قريبة من السماء تقطنها الوعول، وبهذا يمتدح أولئك القوم.

فالمشهد يكشف عن صفة امتناع الوعول حتى بلغت أسباب السماء ولكنها لا تثبت في معاقلها ولا تمتنع أمام النّعمان بن المنذر في قول النابغة الذبياني[6]:

تَـزِلُّ الوُعُـولُ العُـصْمُ عَـنْ قُذُفَاتِـهِ وتُـضْحِي ذُراهُ بالسَّحابِ كَـوَافِرَا[7]

وينفذ المشهد إلى علة الاعتصام في القلل عند الوعول، وبهذا يحدد عمق الاستفادة من الصفات الطبيعية وإكسابها صفات نفسية وفكرية. ويؤكد هذا قول آخر للنابغة الذبياني[8]:

---

١ - انظر اللسان (صدع).

٢ - ديوان امرئ القيس ٩٥- ٩٦.

٣ - القُرَيَّة: موضع. وأُمَّنَاً: يعني آمنات. وأَسْرَحُها: أرسلها في المرعى. والغِبُّ: أن تُرْسَل يوماً وتترك يوماً ثم تُراح في اليوم الثاني. وحائل: موضع.

٤ - سَعْد ونائل: من بني نَبْهان وهم من أخذوا إبله، أما بنو ثُعَل فهم حماتها: أي مانِعُوها، وجيرانها: أي مجيروها.

٥ - دُوَيْن: صغَّر الظرف (دون) ليدل على القُرْب. والمَجَادِل: الحصون، وأراد الجبال المرتفعة المنيعة.

٦ - ديوان النابغة الذبياني ٧٠.

٧ - قُذُفاته: نواحي المكان الذي نزل فيه لا تثبت الوعول فيها، وأراد أنه طويل في السماء ومشرف. وذراه: أعاليه. السحاب كَفَر الذرا: أي غطاها وكَلَّلَها لاشتماله عليها.

٨ - ديوان النابغة الذبياني ١٤٤.

obeikandi.com

وقَدْ خِفْتُ حتَّى ما تَزيدُ مَخافتي عَلى وَعِلٍ في ذِي المَطَارَةِ عاقِلِ[1]

فربما تكون علة الخوف وحدها وراء اتخاذ الوعول للذرا أماكن آمنة لها، ولكن الشعراء أعرضوا عن هذه الصفة إلى صفة الإثارة وكأن الوعول تدرك ما تفعل. فعدي بن زيد يجعل ارتقاء المعاقل تفاخراً لديها فيقول[2]:

وأرى الشَّاهِقَ المُدِلَّ بِهِ الأَرْ وى دُوَيْنَ السَّمَاءِ وَعْرَ المَرَاقِي[3]

فالنوازع النفسية لمشهد الأوعال تأخذ من صفة المنعة طريقاً إلى الغاية التي ينشدها الشعراء، ومن ثم يصبح ذا إيحاء خاص حينما يتحدثون عن المرأة. فعروة بن الورد تمتَّع بامرأة في منبطح الأوعال[4]، أما سلمى فقد ظلت ممتنعة على امرئ القيس[5] بذات الأوعال، على حين أن سُوَيْد بن أبي كاهل اليشكري نزل من معقله لأنه أحب صاحبته[6]، وسُوَيد تحدر من الجبال كما حدر المطر الوعول من رؤوسها، حين ثارت الطبيعة ودفعت بشآبيب المطر[7].

وبهذا كله كنى الشعراء بالوعول عن صفات القوة وطول العمر، ولكن فراره من يد الدهر عبث، ومهما يتمنع منه فإنه سينزل به المصير المحتوم الذي يُذيقه المخلوقات[8]. ومن أمثلة ذلك قول الأفوه الأودي[9]:

---

١ - على وعل: على مخافة وعل، وخَصَّهُ لأنه أشد خوفاً من غيره. والعاقل: الذي عقل في الجبل. وذو المَطَارة: اسم جَبَل، انظر معجم البلدان (مطارة).

٢ - ديوان عدي بن زيد ١٥٤.

٣ - الشاهق: أي المكان المرتفع.

٤ - انظر ديوان عروة بن الورد (صادر) ٦٣.

٥ - انظر ديوان امرئ القيس ٢٨.

٦ - انظر المفضليات ١٩٢ ب٨ أو ديوان سويد بن أبي كاهل ٢٥ ب ١٨.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٦ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣١ وقصائد جاهلية نادرة ١٢٩.

٨ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ١٤٠ وبشر بن أبي خازم ١٤٨ ودريد بن الصمة ٢٨ والأعشى ١٣٧ والمفضليات ٢٣٨ ق٥٤.

٩ - ديوان الأفوه الأودي (الطرائف الأدبية) ١٦.

obeikandl.com

والـــدَّهْرُ لا يَبْقَـــى علَـــى صَـــرْفِهِ مُغْفِـــرَةٌ فِي حَـــالِقٍ مَرْمَـــرِيسِ[1]

فالدهر قد يهمل الوعل إلى حين، ولكنه لا يترك له الهناءة تدوم، وإن تشعبت قرونه، كأن الدهر نسيه، أو امتنع عليه إلى حين. ولهذا تراه يعالج صخرة من الصخور ظناً منه أن سيفلقها، ولكن هيهات له ذلك. وهذا مانبهنا عليه الأعشى حين وصف يزيد بن مُسَهّر الشيباني بوعل أحمق ينطح صخرة ولكنه ما أوهى إلا قرنه[2]:

كنـاطِحٍ صَـخْرَةً يَوْمـاً لِيَفْلِقَهَـا فلـم يَـضِرْها وأوْهـى قَرْنَـهُ الوَعِـلُ

فمشهد الوعول يلتزم صفة الحديث عن القوة والمنعة وتسلط الدهر على المخلوقات ولكنه لم يكن ليقف عند هذا الاتجاه وحده، إذ وقع فيه ـ أحياناً ـ بعض المعاني الأخرى. فالصدع مَثَل للقوة والشباب ماجعله يصف الفرس الأجرد[3] النشط به، وكذلك ظهرت هذه الصفة في الإنسان[4].

وبهذا كله ظل مشهد الوعل في القصيدة الجاهلية محاكياً جُملة من الصفات التي انتزعها الشعراء منه، وقد سيطرت الأبيات المفردة على أغلب مشاهده، بيد أن الوعل جاء في أشعار الهذليين أكثر تركيزاً، فهو في أشعارهم مَثَل[5] للعِبْرة والتعزي نُسج في ضَرب من القصص الحزينة والمثيرة، ولهذا طالت أغلب مشاهده لديهم على خلاف كثير من الجاهليين.

ومشهد الوعول يُعَدُّ آخر مشاهد الشاء ولكنه ليس الأخير في القصيدة الجاهلية بين ذوات الأظلاف من الوحشي والأهلي، فقد يقع الباحث على عدد من مشاهد حيوانات أخرى.

---

١ - المُغْفِرة: الشاة، وأراد الأُرْوِيَّة. والحالق: الجَبَل الشامخ. والمَرْمَرِيسُ: الأَملَس، وهي صفة للجبل. وصَرْف الدهر: أحداثه.

٢ - ديوان الأعشى ٩٧.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ٢٣.

٤ - انظر اللسان (صدع).

٥ - انظر ما ورد في (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١٠٨- ١٠٩.

obeikandl.com

ومن هنا يعمد البحث إلى الإشارة إليها على عزتها في الشعر الجاهلي، وهي لا تروي غلة الصادي في أي معنى يطلبه أو أي تفصيل يدور حول أحداث ما. ولهذا بقيت في إطار من الإشارة العارضة والسريعة.

٤ - مشهد حيوانات أخرى

قد يقع بعض مشاهد لحيوان ما غير معروف للجاهليين كلهم أو لأنه ليس محط نظرتهم الفنية، ويمثل هذا وذاك الحمار الأهلي والفيل، وغيرهما من الحيوانات.

ومشهد الحمار الأهلي نادر الذكر في القصيدة الجاهلية على عكس الحمار الوحشي. وإن ذُكر فهو مضرب المثل في الذل، فقيل: أذل من حمار مقيد[١]. ومن أمثلته[٢] ما وجدناه في شعر دريد بن الصمة حين شبه نفسه يوم كَبِر بعَيْر مربوط جانب خيمة دون أن يؤبه له كالذليل فقال[٣]:

أَصْبَحْتُ أَقْنِفُ أَهْدَافَ المَنُونِ كما ... يَرْمِي الدَّرِيْئَةَ أَدْنَى فُوْقَةِ الوَتَرِ[٤]

في مَنْزِلٍ نَازِحٍ م الحيِّ مُنْتَبَذٍ ... كمَرْبَطِ العَيْرِ لا أُدْعَى إلى خَبَرِ

ويستفيد بشر بن أبي خازم من صفة الغباوة والذلة في الحمار الأهلي وطالما ضُربتا مثلاً في الرجال[٥]، فيصور القوم الذين لم يتخذوا لأنفسهم الحيطة من عدوهم بأنهم أشبه به وقد سكن سكوناً تاماً حتى شلت حركته بسبب ما غشيه من الخَوْف فقال[٦]:

---

١ - انظر مجمع الأمثال ٢٨٣/١ وجمهرة الأمثال ٤٦٨/١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٥٩ وعامر بن الطفيل ٥٣.

٣ - ديوان دريد بن الصمة ٦٦ والشعر في الأغاني ٢٥/١٠ وفي الرواية اختلاف.

٤ - الدريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها. والفُوْق: موضع السَّهْم من الوَتَر.

٥ - انظر سورة الجمعة ٥/٦٢ ورسالة الصاهل والشاحج ١١٩ وجمهرة الأمثال ٤٦٨/١ والحيوان في الشعر الجاهلي ٣٧ ـ ٣٨ .

٦ - ديوان بشر بن أبي خازم ٧٠.

obeikandl.com

وقَــدْ ضَــمَزَتْ بجِرَّتِهــا سُــلَيْمٌ مخَافَتَنَــا كمــا ضَــمَزَ الحِمــارُ[1]

وخُصّ الحمار بالهوان لأنه لا يجتر فهو ضامز أبداً، مثلما خص صوته بالنكارة وقد ضُرب مثلاً في هذا[2].

أما مشهد الفيل فمواضع ذكره في الشعر الجاهلي نادرة، وقد جاء لبيان صفة الضخامة والقدرة[3]، أو في بعض الإشارات التاريخية إلى حادثة الفيل المشهورة يوم غزت الحبشة البيت الحرام[4].

فالفيل غير موجود في بلاد العرب[5]، وقد تناهت إلى أسماع العرب أخباره ولا سيما شهرة قوته، فضربه لبيد بن ربيعة مثلاً في ذلك، وظن أن القوة موجودة في صاحبه أيضاً، فتعجب من قدرته على تصريف الأمور وسياستها في قوله[6]:

لا يَقُــوم الفِيْــلُ أو فَيَّالُــهُ زَلَّ عَــنْ مِثْــلِ مَقَــامِي وزَحَــلْ[7]

وهناك مشاهد حيوانات لا يؤبه لشأنها لأنها لا قيمة كبيرة لها في معطياتها الفنية والفكرية، جاءت في باب الإضافة إلى غيرها غالباً، كالبغل والزرافة في شعر لعدي بن زيد مثلاً[8].

ولهذا سننقل الخُطى إلى ذكر المشاهد العامة لذوات الناب والأظفار والزواحف والحشرات وهي الفصل الأخير في هذا البحث.

---

١ - ضَمَزَ الحمار: أمسك جِرَّته، فلم يجتر من الفزع أو سرعة السير، وضمزت – هنا – خضعت وذلت.

٢ - انظر سورة لقمان ١٩/٣١ وانظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٤٥ والحيوان ١٧٤/٧ ومحاضرات الأدباء ٦٣٤/٤ وصحيح البخاري ١٥٥/٤.

٣ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٧٦ وتأبط شراً ١٨٩.

٤ - انظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٩٢ وطفيل الغنوي ٧٦ والروض الأنف ١ / ٢٩٣ و ٣٣٤.

٥ - انظر محاضرات الأدباء ٦٦٤/٤.

٦ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٩٤.

٧ - زَحَل الشيء عن مكانه: زَلَّ عنه. وهذا البيت مما عِيْب على لبيد لظنه القوة الهائلة في صاحب الفيل، انظر الديوان.

٨ - انظر مثلاً: ديوان عدي بن زيد ٤٦ ق٥٥ وديوان بشر بن أبي خازم ٩٨، وانظر الروض الأنف ١/ ٣٠٥ و٣١٢.

obeikandl.com